قبل بزوغ القمر

قبل بزوغ القمر (قصص قصيرة).....1

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

-قبل بزوغ القمر (قصص قصيرة).

-المؤلف: دلاور زنكي.

-ترجمة: الشيخ توفيق الحسيني.

-من منشورات صحيفة (ميديا-18)

الطبعة الأولى- سنة 2001- أربيل- جنوب كوردستان.

الطبعة الثانية-سنة 2010م-بيروت- لبنان.

مطبعة: أميرال.

من الأدب الكردي المعاصر

دلاور زنكي

قبل بزوغ القمر

(قصص قصيرة)

(من صميم الحياة)

ترجمة

توفيق الحسيني

قبل بزوغ القمر (قصص قصيرة).....3

أنها ليست بمقدمة!!

مما لا شك فيه أن الأدب هو تعبير عن الواقع. والواقع هو الحياة بكافة مظاهرها الأفراح والأتراح. الانتصارات والكبوات استمرارية الحياة وفنائها. أقدار الحياة فرضت علينا الاستمرار في الكفاح والعمل من أجل غد مزدهر سعيد.

وحسب إدراكنا وتصوراتنا فإن الإنسان الكوردي أحب الحياة الحرة المملوءة بالشموخ والكبرياء أكثر من أي إنسان آخر. لأن الظلم والاضطهاد والتعسف الذي تعرض له الفرد الكوردي فاق حد التصور مما ولد لديه إحساسا أعمق بأهمية الحرية والعيش بشموخ.

عندما قرأت هذه المجموعة القصصية للأخ **(دلاور زنكي)** أحسست بأن الكاتب قد نقل بمهارة وشجاعة وأمانة واقع النضال القومي الكوردي وعبر عنه بريشة الفنان المبدع.

وأنني أرى هذه المجموعة القصصية يمكن إدراجها (ضمن أدب المقاومة الكوردية) وقد استفاد الكاتب من تاريخ النضال القومي الكوردي لتكون أعماق التاريخ وأحداث الماضي مرآة للحاضر والمستقبل وقد وظف الكاتب هذا الجانب ببراعة.

ان الكاتب هو الذي يربط أحداث الماضي وكفاح الأجداد لتبصير الأجيال الحاضرة من الأبناء وأجيال المستقبل من

الأحفاد بمدى الظلم والاضطهاد الذي تعرض له شعبه ومدى وعنفوان المقاومة التي أبداها آباؤه وأجداده في وجه قوى الأعداء الغاشمة ولتكون البطولات والتضحيات الجسيمة التي قدموها على زرع الحرية نبراساً وحافزاً وملهماً لهم في الوقوف بشموخ وعز وكرامة لنيل حقوقهم القومية التي حاول ويحاول الأعداء بكل طاقاتهم هضمها بل ومحاولة إخفائها وطمسها.

تفضلوا وطالعوا هذه القصص لتكون مثالاً وعبراً للجميع. نحن نشد على يدي الكاتب وندعو له دوام التقدم.

غفور مخموري[1]

أربيل-جنوب كوردستان

12 رييه ندان 2700 كوردي

2001/2/1م

[1] رئيس حزب (الاتحاد القومي الديمقراطي الكوردستاني)-العراق.

قبل بزوغ القمر (قصص قصيرة).....6

المقدمة

طالما أن قوام الحياة هي دمعة وابتسامة، ونزاع وصراع، وحرية واستعباد، ومطالبة وصد، وحق مغتصب ودم مهراق، وغنم وعزم، وفرض وواجب، وعزم وضعف، وقلب خافق، وجرح يشخب، وكفر وإيمان، وكره وأنانية، وطمع وقيود، وجحود وصدود،.. حيث تبدأ من هنا قصة الحمل والذئب، وقصة التدمير والتقتيل، وقصة التهجير والتشريد، وقصة الند والضد، فمنها ما يتجدد ويتحول، ومنها ما يعود ويتكرر ومنها ما يذهب في مهامه الزمن ويتماهى في صور من النسيان. ومنها ما يبلغ درجة الأسطورة والخرافة.. لكن الخالدات منها ثابتة باقية صادقة في حبكها وكلماتها التي تسَمّر في وجدان الأمة وفي مجريات وأحداث ومرجعيات التاريخ.

هنالك قصة يومية زمنية تتجدد. قصة الإنسان في الزمان والمكان، قصة الحضارة قصة النضال، قصة الحيتان والأسماك، قصة الهاضم والمهضوم، قصة الإنسان وتفاعله مع معالم الكون والطبيعة بين الضعف والقوى الجبارة، وقصة السلامة والمرصد، والنقد والتسليم، قصة الرجل والمرأة، قصة التجمعات الإنسانية بين حقها وباطلها، وانبعاثها وطمسها، وبقائها وزوالها، وقصة البداية والنهاية، قصة الشقاء والرجاء التي تدور في مجملها ومحاورها بين الوجود والإرادة، والطمع والجشع.

فهل يأتي زمان تتفتح العقول والضمائر وتتوازن فيه المقاييس والمعايير وينهار فيه الظلام والجبروت ويفتر عن البسمة والرجاء فيتضافر فيه القلوب بالحب والوئام وينزع منها الحقد والكراهية والاستعباد ويحتكم فيها العقل السوي والحوار البناء، وتتوحد فيها اللغة والخطاب المشترك والسمو النفسي، والقيم حين يقتسم فيه الهواء والماء والأرض ولقمة العيش والوفاء والتفاهم والسلام بعدل وإنصاف.

ولقد استعرضت قصص الكاتب اللامع **دلاور زنكي** وأعجبت بمواضيعها وطروحاتها فقرأت فيها الإباء والشجاعة والنضال والتمسك بالمبدأ وحرية الرأي وتحرر الوطن المغتصب المجزأ وتلمست فيها أساليب القهر والضغوط الشوفينية على الشعوب العزلاء المسالمة والتي تسعى لتحقيق ذاتها ووجودها ودفع المكائد والشر والتخلف والجهل ونبذ الحقد والقمع والتشرد في شتى صوره المقيتة وفتح الحوار القائم على المنطق والعقل والوحدة الوطنية والديمقراطية والحب.

إني أقدر جهد الكاتب والمترجم. لكن الحياة في مجملها قصة أمل ضليل تحققه دوافع وعوامل الخير والمصلحة والزمان.

عزالدين علي ملا

دمشق/2000

الشهيد

عندما التقت عيناه بـ"روان" وهي تسير في الشارع مع أحدى صاحباتها أسرع في تجرع ثمالة كأس الشاي، وتناول الصحيفة عن المائدة وتأبطها ودس يده في جيبه وأخرج نقوداً ونفح النادل بها.

خرج من المقهى وسار في أعقابهما وعند منعطف الشارع دنا منهما وقال:

سلاماً... أيتها السيدتان.

وإذ نطق بذلك امتعضتا وتجهمتا في وجهه ونظرتا إليه نظرات الغضب وحين عرفته "روان" تهلل محياها وابتسمت ابتسامة رقيقة:

-معذرة... كدنا أن نهوى بحقَّائبنا على أم رأسك... لقد حسبناك متسكعاً من متسكعي المدينة، يتعرض لنا.

-وهل أنا رزين جداً؟.

ضحك الجميع وتابعوا السير... لقد مرّ شهران دون أن يلتقيا وقد اشتد بهما الحنين.. . كان بوده أن يتحدثا عما جرى في فترة الشهر المنصرم... وأن يلم كل منهما بأحوال الآخر ويسأل كل منهما الآخر عن شؤونه ويفضي إليه بأشياء جدّت وهما مفترقان.. لكنه تحّرج من وجود رفيقة "روان" إلى جانبها فلم ينشط للبوح عما يجيش في خاطرهِ أمام فتاة أخرى على

الرغم من علمه بإخلاصها وطيبة قلبها.. فهي بحاجة إلى مزيد من التجربة لاختبارها وسبر نفسيتها والاطمئنان إلى إخلاصها ووفائها. ولهذا السبب بدا عليه القلق.

وبعد أن ودعتهما رفيقة "روان" وقصدت بيتها، سرت الفتاة وبادرت إلى القول وكأنها قد أعدته من ذي قبل:

-ويحك... لقد انصرم شهر برمته... فأين كنت كل هذه المدة الطويلة فلا نسمع عنك نبأً كصخرة طرحت في قعر بئر لا قرار لها.

-دعيك عن هذا... لقد كُلفت بمهمة شاقة كان عليّ أن أنفذها ولذلك تحتم عليّ الغياب عن الكلية... وقد لا أعود إليها بعد اليوم.

نظرت إليه "روان" مندهشة وقالت:

-ولماذا تترك دراستك وأنت في سنتك الأخيرة؟

-لا يمكن التحدث هنا ونحن سائران في الطريق... ولكن سنحدد مكاناً للقاء في موعد معلوم هذه الليلة وسوف نتكلم ونستفيض في الحديث، إن لم يكن لديك ما يمنع ذلك. وهذا ما أفضله.

-حسناً... لدي أيضاً أسئلة سأطرحها وأريد أجوبة... فأين تريد أن تلتقي هذه الليلة؟.

-الساعة السابعة مساء في منتزه المدينة فما رأيك؟.

-حسنٌ... لا بأس.

ثم ودع كل منهما الآخر وافترقا.

سار في زقاق ضيق، وشرع يبتعد رويداً رويداً... وكانت "روان" تراقبه من الخلف عاد بها الفكر إلى ما قبل ثلاثة أعوام عندما عرف كل منهما صاحبه أول مرة وتذكرت أنه تحدث لها في اجتماع وخاطب الحضور على الشكل التالي:

-"أيها الرفاق لا تنسوا أننا نعيش في بلد عريق، وهذا الوطن الذي نسعى إلى تحقيق سيادته قد أُستعمر منذ مئات السنين وهذه الأرض التي نحاول استردادها من المحتل، داستها أقدام العدو وترسخت عليها أمداً طويلاً، وليس من الهين والسهل أن نطرده في مدى قصير ونطهرها منه. لهذا فالطريق وعر وطويل وشاق، ذاك الطريق الذي يحقق لنا الوعي واليقظة.. إن العدو ذو بأس وقوة وسبيلنا محفوف بالمخاطر والمصاعب والهدف ناءٍ، وعلينا أن لا نتوقع تجسيد آمالنا في أيام معدودات".

كانت هذه الكلمات الناضجة، المترعة بالحرارة والثقة والاطمئنان قد أثرت في ذات "روان" وهزت مشاعرها وجعلتها أسيرة تلك المعاني السامية والغايات النبيلة. وفي الحقيقة كانت "روان" تعتنق مثل هذه الفكرة منذ ذي قبل. بَيْد أن كلمات تلك الليلة وثقت بينهما الوشائج وأحكمت هذا الوثاق... ويعد تلك الليلة تم التعارف بينهما في حضور إحدى رفيقاتها.لم تكن كلماته وأحاديثه عذبة، جذابة في الاجتماعات وحدها. لكنها

كانت معسولة وعليها طلاوة في كل المناسبات، وكان هذا الفتى من الضرب الذي لا يعرف للتضحية حدوداً، مخلصاً شديد الوفاء والإخلاص لأصدقائه يؤثرهم على نفسه، شديد الخصومة لأعدائه... يحبه جميع الطلبة ويميلون إلى مخالطته ويكنّون له الود والاحترام وكانت "روان" من أشد الناس وأكثرهم حباً له وشغفاً به وكان يبادلها مثل هذا الحب والاهتمام، حتى أنهما ذات مرة تعاهدا على الزواج بعد التخرج ولم يكن قد بقي على ذلك سوى عام واحد.

كان الناس يتجولون ويطوفون في شوارع المدينة كجماعات من النمل الذي يكون في عجلة من أمره، أما أولئك الذين يمسكون بأيدي أطفالهم يسيرون الهوينى ويمشون متمهلين متأنين، والذين أنهوا أعمالهم يحثون الخطا ويسرعون للعودة إلى بيوتهم.. والذين يجلسون في المقاهي قد ودعوا متاعب النهار وها هم يتبادلون الدعابات ويتضاحكون بأصوات عالية. وقصارى القول. لقد كان ذلك اليوم يوماً من أيام الربيع الزاهية في المدينة.

كانت "روان" في أوج سعادتها. ارتدت ملابس جديدة، ورجّلت شعرها وتناولت محفظتها وخرجت من البيت تؤم منتزه المدينة... وصلت إلى المنتزه... سرحت بطرفها في الأرجاء شاهدته جالساً في ركن من الأركان تحت شجرة وارفة لا تكاد الأضواء الكهربائية تبدي عن مكان جلوسه. كان صوت الغناء

يُبث من مكبرات الصوت وينتشر في الأجواء، ولما كان ينتظر حضور "روان" بفارغ الصبر ويترقب وصولها بين الفينة والفينة فقد شاهدها للوهلة الأولى من دخولها المنتزه فأومأ لها برأسه وقد انبسطت أساريره والبشاشة تعلو صفحة وجهه وارتسمت على شفتيه ابتسامة مشرقة، وحين شاهدته "روان" بادرت إلى لقائه وتوجهت إليه في الحال.

نهض "زيرفان" احتفاء بها وصافحها بحرارة ثم أشار إليها بالجلوس وبعد ما استتب بها الجلوس. سألها:

-كيف هي أحوالك؟ عسى أن تكوني بخير... ما هي الأخبار؟.

قالت "روان" معاتبة:

-أية حال وأية أخبار... ها أنت ذا تغيب وتغيب... لقد أصبحت كالبدر الذي يحتجب تحت الغيوم... يظهر أحيانا... ويغيب أحياناً أخرى... لقد تأخرت كثيراً هذه المرة... كدنا نبحث عنك هنا وهناك.... كنت أقول بيني وبين نفسي "إن الرجل قد ألقي عليه القبض في مكان مّا أو ربما قُتل". وخشية أن يصدق حدسي... لم أكلف نفسي بالسؤال عنك واستقصاء أخبارك.

ضحك "زيرفان" ضحكةً مدوية ويدها في كفه وقال:

-لا تبالي قط.. فأنا ذو سبعة أرواح... فكم من مرة نجوت من الموت. إلا تذكرين؟ ولكننا ما دمنا سائرين في هذا الدرب

فسوف تلقى الكثير من الصعاب والمآزق. وقد نلقى حتفنا ذات مرة. وهذه هي الحقيقة فإما أن تدع هذا الأمر أو نضع كل هذا في الحسبان، إلا أن التخلي بات مستحيلاً وصار متعذراً وسيان إن متنا أو حيينا. قالت "روان" مداعبةً:

-لا تتشاءم بهذه الطريقة، وتكلم بما يسر النفس وكن متفائلاً. لقد اعددنا العدة لكل ذلك.. ونحن مستعدون لكل شيء ولكن اخفض صوتك وتكلم بهدوء فصوتك يصل إلى هناك.

تكلم "زيرفان" هذه المرة- بصوت خافت كالهمس وكأنه يبشرها:

-لديّ خبر يسّرك... لقد اتخذ الرفاق قراراً بتصعيد العمل النضالي منذ الآن... وفي هذا المنحى الجديد سيكون لي ولك من الأعباء ما يكفينا للنهوض به وسد فراغنا.

-حسنٌ... في الحقيقة لا بد من ذلك. ألا ترى أحوال الشعب. لقد سمم عيشه وساءت أحواله وفتكت به الأدواء والأوبئة. مِن الناس مَنْ يُطرد من عمله ومنهم من يتشرد ويجوع ومنهم مَن يسجن ويُقتل... وإزاء هذه الأوضاع المزرية لا نرى من يحرك ساكناً أو يفعل شيئاً... لقد حرّم الناسَ النومَ خوفهم من البوليس و الجندرمة لا يدرون متى سيداهمون... ألا ترى أن الناس في الأسواق والمقاهي وفي البيوت باتوا يخشون على أنفسهم من السطو والاعتداء... لقد دبّ اليأس والإحباط والشك في نفوسهم، وليس بالإمكان التحدث عن الوطن أمام أحد... لأنهم أصبحوا

يائسين من كل الحركات النضالية ولا يكفون عن القول:"لقد شاهدناكم في البأساء والضراء وفي السراء وأيام الرخاء... رأيناكم تتصارعون فيما بينكم والعدو ينظر إليكم مغتبطا فرحاً، راضياً كل الرضى بما تصنعون... ولما تسلم العسكريون سدة الحكم تفرقت الجموع وتبددت كقطعان من السوائم حين تغير عليها الذئاب المتضورة جوعاً، وفررتم إلى أصقاع العالم.. تذكروا الشيخ سعيد الذي واكبه نصف الشعب ومع ذلك لم يستطع مجابهة الجيوش التركية، فهل انتم تستطيعون فعل شيء وانتم على هذه الحال من التشرذم والتفكك والفوضى وتفرق الأهواء واختلاف الآراء".

أزاحت بيدها اليمنى خصلة شعر انسدلت جبهتها ثم استأنفت:

-"وفي الحقيقة، إن الشعب على حق فيما يذهب إليه من عتاب وملام ومتى سألت أحدهم عن رأيه أجاب" إننا مستعدون لتأسيس وحدة أو جبهة".... كل شيء ممكن ومتاح نظرياً وليس من شيء ملموس أو واقع تحت النظر.

هز "زيرفان" رأسه بطريقة تنم عن تأييده وموافقته ألرأيها وقال بصوت هادئ بالقدر الذي تسمعه "روان":

-يا "روان".... لقد شاهدنا معاً جميع المتاعب والهموم والنقائص ونحن نتحرك هنا وهناك.. عشناها ولمسناها لمس اليد وتحدثنا عنها ملياً.. ولكن منذ الآن فصاعداً فكل حديث عبث لا

طائل منه، ولئن تحدثنا عن تلك الخلافات بين الأخوة وعالجناها فيجب أن لا تتكرر، وهذه الأرزاء الماحقة التي يلحقها بنا العدو يجب أن تتخذ درساً ونتعلم منها العبر ولا نعود إليها.

بعد أن صمتا برهة أشعل "زيرفان" سيجارة وألقى نظرة حانية على "روان" وقال في ضراعة:

-إن قضية زواجنا طال عليها الأمد... ولست أدري لماذا ينظر والداك إلى هذه المسألة دون مبالاة، وكأنّ الأمر لا يعنيهما... إنهما لا يرفضان ولا يوافقان، ولا ندري ماذا علينا أن نفعل... ولا أستطع أن استشف الحقيقة من وراء هذا المسلك... أبي وأمي –كذلك- ينتظران بفارغ الصبر... لأنني الولد البكر في الأسرة... إنهما يتطلعان إلى زواجي بشوق ولهفة، وقد سبق أن قال لي والدي مذكراً بهذا الزواج:

-"آه... يا ولدي إن كان أهل "روان" يرفضون زواجك منها فسوف اخطب لك ابنة عمك..."... وقد رأيتها بأم عيني إنها رائعة الجمال".

-إن ابنة عمي في نظري بمثابة شقيقتي وقد ترعرعنا معاً... إنها فتاة طيبة ولكنني لا أميل إليها ولا يشتهيها قلبي... أما أنا وأنت فقد مضى على صداقتنا ثلاث سنوات، عرف خلالها كلٌ منا طباع الآخر وخصاله وقد ناضلنا معاً، ومشربنا واحد ونهجنا واحد وأحلامنا وآمالنا واحدة، ولا أحب الأطناب في هذا

الموضوع فقد استفضنا في الحديث عنه وتداولنا مناقشة جوانبه وأشبعناه درساً وتمحيصاً. فقالت "روان" في الحال:

-لا تقلق... هذه المسألة مقضيه... تذكر انك زرتنا في المرة السابقة وحين خرجت قال أبي يحدث والدتي على مسمع مني وكأنه يتعمد ذلك كي اسمعه "ألا ترين أن مسألة زواجهما قد تفاقم أمرها قليلاً.. ولكن لنصبر قليلاً، حتى تنتهي أيام الجامعة فنزوجها... والله إني كلما أبصرتهما أحسست بالمرارة وتألمت من اجلهما.".

وإذ سمع "زيرفان" حديث "روان" أومضت عيناه ومْضاً طاغياً وكاد أن يحتضنها في المنتزه فتناول يدها وخرجا.

سارا الهوينى، وانطلقا بخطوات متأنية وئيدة.. تحدثا مطولاً في الأحداث الأخيرة وفي أوضاع البلاد... تكلما عن خططهما الجديدة وعن القرار الذي اتخذه الرفاق بصدد ما يجب أن يفعلوه في المستقبل القريب. كانا قد وصلا إلى منعطف الشارع القريب من دار "روان" فمد إليها يده مصافحاً وقال:

-لقد تأخر الوقت ولا بد من أن أذهب... وداعاً.. سنفترق أياماً. وحين أمسكت "روان" بيده نظرت فيما حولها فوجدت المكان خالياً من السابلة وعندئذ ألقت بنفسها على صدره وطوقت عنقه بذراعيها وقالت:

-كم أحبك... متى يجمعنا سقف واحدٌ.

غادرها "زيرفان" وذهب إلى حيث يجتمع الرفاق وينتظرون قدومه فجلس إليهم قليلاً وبدأ يحدثهم قائلاً:

-إنها الساعة الثانية عشرة ويجب أن نتحرك الآن.

ثم تناول محفظة إلى جانبه واخرج منها مقداراً من القصاصات ووزعها عليهم واحتفظ بقسم منها ثم أغلق المحفظة. سرح الطرف فيهم وتابع:

-تعلمون أن مهمة توزيع هذه النشرات في هذا الحي تقع على عاتقنا نحن الأربعة وطريقتنا في التوزيع ستكون كالتالي:"سأبدأ أنا والرفيق "صورو" من الشمال و سيبدأ الرفيقان "سردار" و "شيرو" من القسم السفلي، وسنستمر في إلقائها حتى لا ندع بيتاً واحداً. ستدسون "المنشورات" من خلال شقوق الجدران وخصاص الأبواب وفي منافذ الحمامات والمطابخ وفي صدوع الأسوار ومن فوقها ومن أي مكان يتاح لنا.. وعلينا أن تكون متيقظين حذرين فانتم لا تجهلون الأوضاع في "دياربكر"، فقد ألقت الحكومة الفاشية أعدادا هائلة من البوليس تفوق عدد السكان.. وليس لنا من القوة سوى عزيمتنا وإرادتنا.. وكذا مسدساتكم.

أومأ الثلاثة بحركة من رؤوسهم علامة الموافقة. فعاد إلى القول "حسناً لن نخرج دفعة واحدة فهذا أفضل. ليخرج الرفيقان "سردار" و "شيرو" أولاً، ومتى ابتعدا عن المنزل خرجنا".

وأخيراً تأهب الرفيقان "سردار" و "شيرو"للخروج وأشار برأسيهما مودعين وحملا حقيبتيهما. ودون أن ينبسا ببت ضاعا بين مصراعي الباب.

وتزجية للوقت ريثما يبتعد هذان الرفيقان، ألقى نظرة على منشور بين يديه وقلبه ظهراً لبطن ثم قرأ ما جاء فيه قراءة صامتة:

"إلى شعبنا الكردي... لقد مرت على شعبنا ثلاث سنوات من الظلم والإجحاف والاضطهاد في ظل هذا الحكم العسكري الجائر.... في كل يوم يقتل فتياننا وفتياتنا...يقتحم رجال البوليس و الجندرمة الدور والبيوت ينهبون ويقتلون وينتهكون الأعراض كذئاب تلطخت أشداقها بالدم. وقد أصبحت الفاقة والمجاعة كابوساً ثقيلاً ينيخ فوق صدر الشعب ويكتم أنفاسه... إنهم يفعلون كما يملى عليهم الهوى لا يريدعهم وازع أو رادع".

كان الليل في هزيعه الأخير والسماء صافية الأديم، تهب أنسام عليلة وتلتمع النجوم وتتألق، وربما سقط من أحداها يتزك وصار شهاباً ورسم في السماء خطاً مضيئاً فترة من الزمن ثم انطفأ.

كانت هذه المدينة مقفرة موحشة في مثل هذا الوقت من الليل وصارت كمفازة خلت من كل ألوان الحياة، وهي التي كانت قبل ساعات مكتظة بالذاهبين والآبيين ويكاد المرء أن لا يجد لنفسه موطئ قدم لكثرة الزحام. ولم يعد يُسمع في طول المدينة وعرضها سوى الصفير المنطلق من صفارات العسس والحراس الليليين وسوى قرقعة رفوش عمال التنظيف في البلدية وحفيف مكانسهم وهدير بعض سيارات البوليس التي تسير ببطء تستكشف هذا الشارع أو ذاك ثم تمضي.

خرجوا من المنزل بهدوء... تظاهروا بأنهم عائدون من السهر دفعاً للشبهات... وصل "زيرفان" ورفيقه إلى أحد المنعطفات فنخس رفيقه بإصبعه وقال:

-"من هنا سنبدأ... سر نحو الجنوب وسأسير باتجاه الشمال".

لم يكونا حديثي عهد بمثل هذه المهام ولما يكونا غرين فلهما تجربة ومراس ولكن لم يسبق لهما أن كانا في يوم من الأيام بمثل هذه الوفرة وهذا التدفق من الحماس والحمية والنشاط لأن ما شاهداه من تعرض أهليهما وذويهما من الأطفال والرجال والنساء للنهب والتقتيل وشتى صنوف الجور والظلم أججا في نفسيهما نار البغضاء والحنق على العدو في بلد تستباح فيه الأعراض. تحرق البيوت بمن فيها... تُعرى النسوة من ملابسهن وتُسلب الأموال والممتلكات... وإزاء هذا الجور تُرى كيف ستكون مشاعر المتنورين والثوار في هذا البلد؟ وكيف سيكون اندفاعهم؟ وكيف ستكون نظرتهم إلى مثل هذا العدو الغاشم؟ أليس من حقهم أن يجن جنونهم وتقسو قلوبهم و يبطشوا به أيما بطش؟.

كان "زيرفان" يناجي نفسه:"إن لم نناضل في هذه الأيام العصيبة ولم نقاوم العدو فماذا سيقول عنا أبناؤنا وأحفادنا؟ ألن يقولوا: لقد تخاذل آباؤنا واستكانوا للعدو ولو أنهم ضربوا على يده لأحسنوا صنعاً وما كنا اليوم على هذه الحالة المزرية. ومثل هذا اللوم نلقيه نحن أيضاً على أبائنا".

تحت وطأة هذا المشاعر والإحساس بالظلم والقهر بدأوا بإلقاء المنشورات في البيوت من شقوق الجدران وصدوع الأسوار وخصاص الأبواب ومن كل المنافذ التي أتيحت لهم... فعلوا ذلك في كل شارع وفي كل زقاق... تصاعد عدد المنشورات الموزعة .. وعلى هذا المنوال تابعوا العمل.

في أحد الأزقة، كانت أضواء أحد البيوت مازالت تسطع... أراد "زيرفان" أن يلقي بمنشور إلى الداخل، غير أنه سمع

لغطاً... كانوا يتحدثون لكنه أحجم عن ذلك...تطلع إلى الداخل، فشاهد طفلاً يبكي ولا يكف عن البكاء وامرأة يافعة وأخرى طاعنة في السن تحاولان ارضاءه وتهدئته. سألت العجوز المرأة اليافعة:

-هل من طفل سواه يبكي في مثل هذا الوقت من الليل؟ لعله يشكو ألاما.

-والله لا أظن الأمر كذلك... سمعته حين استيقظ يردد: أبي.. أبي.. لقد أخذ البوليس أبي.. متى سيعود أبي؟.. وهل تذكرين حين اصطحبوا والده فبكى بكاء مراً فركلوه بأقدامهم. ولعله شاهد ذلك في منامه فاستفاق مذعوراً يبكي... لقد سقيته ماء فلم يجده نفعاً.

قالت العجوز:

-قاتلهم الله.. تباً لهم من غاشمين طغاة... لقد أبادوا الرجال... لم يبقوا على الفتيان في هذه المدينة... وأية جنحة ارتكبها ابني حتى يجرعونا هذا البلاء كله؟.. سجنوه عاماً كاملاً ثم أصدروا عليه حكماً بالسجن خمسة عشر عاماً.. أهذا هو صنيع البشر؟ ولكن هل تدوم الدنيا على هذه الحال؟ .. سيأتي يوم ينهض فيه رجال أباة يمرغون انوف الطغاة بالتراب.. لم يدم الظلم لأحد...

كان صوتها مدوياً فيه غضب كالبركان أشبه بصوت الرجال.

تقهقر "زيرفان" عن النافذة مناجياً نفسه "لن يدوم ظلمهم... ولكن".

ثم سار وتناول حقيبته واستأنف مهمته بمزيد من الجد والانفعال ولكي يأتي على بقية ما لديه من أوراق ويوزعها على بيوت قليلة لم تنل نصيبها- مشى خطوات قليلة وما إن وصل إلى منحنى أحد الأزقة حتى سمع صوتاً صارخاً:

-من أنت؟ إياك والحركة.

كان الصوت مباغتاً ومرعباً فأجفل "زيرفان" واستل مسدسه واستند بظهره إلى الجدار وتطلع إلى مصدر الصوت فرأى ثلاثة أشخاص يحيطون به من مسافة أربعين خطوة ويصوبون إليه أسلحتهم ذات الفوهات الطويلة، فلم يرتب في أن البوليس يطوقونه، وفي تلك اللحظة خطرت له فكرة الفرار... ولم يفكر في الاستسلام لهم قط.. لم يخطر له ذلك على بال البتة.. ولكن سيولي الأدبار ويلوذ بالفرار؟ لقد وقع في أحبولة كلاب مسعورة..كان من الخير له أن لا يقع فريسة هذا الفخ... حمل السلاح وحيازة السلاح وحدهما كفيلان ليتعرض لأقصى العقوبات والحكم عليه سجناً مدة خمسة عشر عاماً. ناهيك عما سيتعرض له من تعذيب وإرغامه على الإدلاء بأسماء الرفاق والكشف عن حقيقة الحركة...الاستسلام محال... إنه لا يجوز... وفي اللحظة التي كان يتوثب فيها للهرب دوى ذلك الصوت الهمجي:

-لقد عرفناك... واعلم أنْ لا خلاص لك... وليس لك من مهرب... ارفع يديك إلى ما فوق رأسك وتقدم إلينا بهدوء... وإن أتيت بحركة مريبة حطمنا جمجمتك... هيا أسرع واخرج من تلك الزاوية المعتمة.

كان عليه أن يستعجل... أن يكون خفيف الحركة... أن ينفذ خطته في الحال، والعتمة هي فرصته السانحة الوحيدة... وفي وقت وجيز، قبل أن يرتد إليه طرفه، استل مسدسه وأطلق رصاصتين على صدر الشخص الواقف في الوسط، فصدر منه صوت شبيه بخوار جاموس ينحر بمدية مثلمة النصل... ومع انفجار الطلقتين انبطح الآخران على الأرض وشرعا يرشقانه بوابل من الرصاص. وبعد أن أطلق عليهما عدة رصاصات، اقتحم الزقاق وأسرع في الجري وجدّ في الفرار. كانت الطلقات تلاحقه وتمر من حوله كدبابير هائجة وتصطدم بشرفات المنازل وأعمدة الكهرباء أو تحتك بالأرض أو تصطك بالحجارة الملساء فتنزلق عنها وتئز... كان يعدو مستثمراً كل ما في ركبتيه من عزم وقوة... كان يجري طلباً للنجاة محاولاً الخروج إلى زقاق آخر فلا يكون في مرمى قذائفهم.

وصل إلى نهاية الزقاق وبغتةً أصابته رصاصة غادرة في ركبته فسقط على الأرض منكفئاً على وجهه... استجمع قوته ونهض يمشي ظالعاً حتى وصل إلى منعطف الزقاق وهناك أطلق رصاصتين بطريقة اعتباطية لإبعاد المطاردين.. استند إلى الجدار وتوقف.. لكن ساقه اليسرى كانت تمعن في إيلامه وكأنها محشورة بين فكي ثعبان... كانت الركبة مهشمة، والدماء الحارة تنساب من الجرح وتسيل على ساقه حتى تبلغ كاحله.

حاول السير فباءت محاولته بإخفاق ذريع... فقد شلت الرجل المعطوبة ولم تعد إلى الحركة وكأنها ليست عضواً من أعضائه... صارت كخرقة بالية لا روح فيها. غير أنه كان مقسراً على المشي فلو أنه تأخر دقائق أخرى لما ألفى من بعد

ذلك مناصاً أو وجد خلاصاً من براثن البوليس... كانت أعداد البوليس في ازدياد تتقاطر عليه من كل حدب وصوب مثل كلاب شمت رائحة جيفة... إنهم يتكاثرون حيناً بعد حين وإن كانت المعركة صغيرة لا شأن لها.

وضع إحدى يديه على الجدار وسار وهو يعرج... مرت هنيهة فتفاقم الم جرحه ونزفت الدماء بغزارة... أحس بفتور في أعضاء... تراخى جسده... غشت عينيه سحابة سوداء. وعلى هذا المنوال لم يكن ليبلغ مأمناً ولألقي عليه القبض لا محالة... لم يكن في الحي بيوت أصدقاء أو معارف... واللجوء إلى بيت الغرباء غير منطقي وغير ممكن... كان موقفه كموقف أمريء وجد نفسه فجأة في خضم بحر متلاطم دون مغيث أو منقذ... كانت بالقرب منه ساحة خالية عليها خرائب وآثار بيوت متهدمة فأوى إليها، ونزع المنديل عن رأسه وضمد به ركبته النازفة وفي ركن مظلم تمدد على الأرض وظل على هذه الحال.

كان رجال البوليس يطوقون الحي من كل أطرافه... وقد استيقظ جميع السكان في هذا الحي على صوت قذائف البنادق وخبط أقدام البوليس ودبيب حركتهم... فاقتربوا من النوافذ يراقبون الشارع من خلف الستائر دون أن يوقدوا مصابيحهم... وأدركوا من خلال أحاديث البوليس أن معركة شبت:"لقي رجل من البوليس حتفه ولاذ أحد المتمردين بالفرار بعد ما أصيب بطلق ناري".

نادى رجل من البوليس الضابط وقال له:

-سيدي الضابط... هذه هي آثار الدماء... لابد أن الإرهابي موجود هنا...

صرخ الضابط في عناصر البوليس وقال:

-"شددوا الحصار حول الساحة... نريده حياً... اقبضوا عليه ولا تقتلوه ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً...

دوّت كلمات الضابط في أذن "زيرفان" وهدر صداها في رأسه. إنهم يريدون الإمساك به حياً... الآن هان الموت وأصبح رخيصاً. وفي الحال توصل إلى قراره الحاسم "الموت خير من هذه الحال".

استل مسدسه من الحزام المشدود إلى خاصرته وصوبه إلى صدغه وقال يناجي نفسه: "أيتها القضية المقدسة....من أجلك أحيا.. ومن أجلك أموت... عسى أن أكون في قافلة الشهداء الأبرار".

وحالما شدَّ إصبعه على الزناد سقط رأسه إلى الجهة اليسرى وهمد هموده تلك الأرض التي يضطجع عليها وصار جزءاً منها.

في تلك اللحظة صعدت الزغاريد من أحد البيوت القريبة مبشرة بقدوم مولود جديد.

تباً لكِ يا دجلة

في عشية يوم من أواخر الشهر الأخير من الخريف، كانت السماء تمطر بغزارة وينسكب الماء وكأنه ينبثق من أفواه القرب، وكانت البروق تلمع وتومض بين حين وآخر وتضيء الأرجاء وتحيل الليل إلى ما يشبه النهار قليلاً ثم تخمد وتتلاشى، ومن بعد ذلك يزداد تدفق الأمطار فيخيل إلى المرء أن السحب قد عادت وتصدعت فسالت المياه بهذه الغزارة.

كانت العجوز "زين" تتناول اطماراً وترقع هنا وهناك، وكلما دوّى صوت الرعد قالت بخشوع:

-اللهم إني أسألك الرحمة واللطف بالإنسان، كما أسألك أن تشمل بها حتى الذئاب في ذرى الجبال فهي أيضاً مخلوقات بائسة تستحق الشفقة.

وكان العجوز "حسو" يتكئ على وسادة بجانب حفيدته "نرمين" وقد ألقى ساقاً على ساق ووضع ذراعيه على صدره وأرخي قبعته على عينيه ويتمتم بأغنية "ممي آلان"، وكانت العجوز "زين" تردد من بعده بصوت خافت كلمات الأغنية بين حين وآخر وتتأوه وتقول:

-أيها الفلك الدوار كم واريت عيونا حوراء تحت الثرى، وكانت ألكنة "روزين" قد انكبت على مهد وليدها الذي لم

يتجاوز من العمر ثلاثة أشهر تفك أربطته وتناغيه هادئة يفعم صدرها فيضً من السعادة، وكانت مسرورة كل السرور بما تفعل فلو كانت لها أجنحة محلقت في الفضاء فرحاً وابتهاجاً. لقد أنقذها مقدم هذا الوليد الصغير من ألْسِنةِ الجارات وكلماتهن الجارحة ووشاياتهن، إذ لم يكن ينقضي يوم واحد دون حضورهن إلى حماتها قائلات:

-أيتها الجدة "زين" ها هي كنتك قد أجدبت وعقمت وها هي أربعة أعوام تنصرم على ميلاد ابنتها "نرمين" دون أن تنجب ولداً... إن ابنك والحمد لله كأمير من الأمراء... فلماذا لا تزوجينه من فتاة ذات حسب ونسب، وفي غضون أعوام قليلة سيعج بيتك بالأطفال. فكانت العجوز تقول متحسرة متألمة:

-وماذا افعل يا بناتي... أيخيّل إليكن أنني لا أرغب في ذلك؟

الست أتمنى أن تزدهر دارنا كغيرنا من الناس بالأطفال؟ ليت هذه الغمة تنجلي عنا وليت هذا البلاء ينقشع ويعود ابننا إلى البيت وإذ ذاك سنتدبر الأمر وسنصنع ما يجب أن نصنع..

كانت ألكنة "روزين" قد نسيت أحاديث الجارات وأقاويلهن التي تؤرقها وتحرمها النوم وتجعل لياليها مملة مضجرة، ولم يعد يشغل خاطرها سوى هذا الرضيع المدرج في اللفائف.

أما "نرمين" فعلى الرغم من بلوغها خمسة أعوام من العمر فهي ما تزال في كنف جدها وجدتها لا تكاد تفارقهما.

في تلك الليلة ودون توقع وعلى حين غرة قرُع الباب وسمعت طرقات عنيفة، فكفّ العجوز "حسو" عن الاسترسال في أغنيته واستوى جالساً وقال:

-عسى أن يكون الأمر خيراً.. من هذا الذي ضل طريقه في مثل هذا الطقس الذي تخشى فيه الدببة مغادرة أوْجِرتها وجحورها... يا "روزين" يا ابنتي هيا انهضي وافتحي الباب. ثم قال بينه وبين نفسه متوجساً حذراً: "أليس الطارق من الجندرمة؟ أولئك الاندال".

منذ ثلاثة أعوام وحتى الآن لم يدعهم الجندرمة وشأنهم ولم يألوا جهداً في تكدير عيشهم وتنغيص أيامهم، لقد دأبوا على الحضور إلى القرية قائلين:

-يا "حسو كورو"...احضر إلينا ابنك.. فقد نضطر إلى إلقاء القبض عليك وأخذناك بجريرته. فكان العجوز "حسو" يجيب قائلاً:

- أقسم لكم.. أنني لا اعرف عنه شيئاً ولا أدري إن كان في الأحياء أو في الأموات.

لكن قسمه لم يكن يجديه فتيلاً، فكانوا يخرجونه من الدار ويذهبون به، ويحتجزونه أياماً، وبعد أفانين من الضرب والتعذيب والإهانة وبعد أن يقسروه على دفع مبلغ من المال يطلقون سراحه، وذات مرة حاول "الجندرمة" إلقاء القبض على "روزين" فاصطحبوها إلى الخارج وأرغموها على امتطاء السيارة، بَيْد أن نساء القرية تألبن على الجندرمة وارتمين أمامها واعترضن سبيلها، وشنت بعضهم غارة عليهم ورشقنهم بالحجارة حتى أطلقوا سراحها صاغرين. سارت "روزين" الى الباب يجتاحها الذعر ويملأ نفسها الرعب وفتحته بيد مرتجفة.. وما ان فتحته حتى اقتحم الدار ثلاثة أشخاص كالمردة وقد ابتلت ثيابهم وغسلت الأمطار الهاطلة أجسادهم من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم. كان أحدهم رجلاً نصفاً، وكان الاثنان الآخران يافعين في شرخ الشباب، ولم يكن الرجل النصف سوى "جكو" قال متهلل المحيا طلق الأسارير:

-عمتم مساءً..

فضجت العجوز "زين" منتحبة باكية من سعادتها التي هبطت عليها برؤية ابنها الذي طال غيابه وهي تقول:

-أهلا بكم.. جئتم على الرحب والسعة. فداء أنا لضيوفي.. فداء لصناديدي وأبطالي.

ثم نهضت العجوز وقبلتهم واحداً بعد آخر.. وأخيرا وجهت حديثها للشابين المرافقين لولدها "جكو":

-مرحباً بكما يا ولديّ.. لا فرق بينكما وبين ولدي "جكو".. إنكما بمثابة ولدي هذا. انتم جميعاً سواسية.

تشبثت "نرمين" بساق "جكو" قائلة:

-أبتاه.. ماذا جلبت لي هذه المرة؟

حملها "جكو" وضمها إلى صدره ولثمها وقال:

-لقد جلبت لابنتي الغالية أشياء كثيرة.. دعيني أقبل يد جدك أولاً.. ثم..

بعد مراسم اللقاء وتبادل كلمات الترحيب، خلع الثلاثة ثيابهم المبتلة وذهبت "روزين" ورجعت وبين يديها شيء من الحطب فملأت المدفأة من هذا الحطب وأوقدت النار في المدفأة، وفي دقائق معدودات انتشرت النار في الوقود وتأججت ثم شرعت تقلي بيضاً لعشاء الضيوف على هذه النار وبعدما اطمأنوا في مجالسهم، أشعل "جكو" لفافة تبغ وقدم لفافة إلى العجوز "حسو" وقال:

-أبتاه.. لعلكم لا تعرفون رفيقيّ هذين.. ولا بد من التعريف بهما.

ثم أومأ بيده إلى ناحية اليسار وقال:

-هنا الرفيق يدعى "شيار" وقد تلقى الدرس في المعاهد العلمية وهذا الرفيق هو "جوان" وكان فيما مضى موظفاً في أحد المصانع قبل زمن الاضطهاد والتعسف وقد كنا في مهمة في العراق وها نحن قادمون من هناك.

عرك العجوز "حسو" حبات السبحة بين كفيه وقال بوقار:

-على الرحب والسعة يا أولادي.

كانت العجوز "زين" قد بسطت رجليها تهز مهد الوليد وتهدهده بأناة. ولكي تجذب انتباه "جكو" والضيفين المرافقين تدخلت في الحديث قائلة:

-على أيّ حال تركتم أولئك الذين غادرتموهم.. عسى أن يكونوا بخير...؟ وحين التفت عينا "جكو" بالمهد نسي أن يجيب عن سؤال العجوز "زين" وتذكر ان "روزين" قالت له قبل أن يغادر الدار: "أنني حامل وسوف يكون لنا ولد" وها هي العجوز "زين" تهز السرير فلم يتمالك نفسه وسأل:

-أماه... ناشتك الله... أليس هذا السرير خاوياً؟

فقالت العجوز برقة يشوبها الخيلاء:

-آه يا ولدي... وكيف أهز سريراً خاوياً؟ في السرير طفل كالحمل حفظه المولى ورعاه.

كان "شيار" مولعاً بالأطفال شغوفاً بهم وما ان لمح الطفل حتى كرّ على السرير وانتزعه وطفق يقذفه إلى الأعلى قليلاً ثم يتلقفه... وفعل ذلك مراراً ولما كان الطفل حديث عهدٍ بالنوم وآثار النعاس ما تزال ترنق في مقلتيه فقد بدا عابساً مكفهر الوجه.. يتلمظ، ولما قضى "شيار" وطراً من مداعبة الطفل خاطب والده متفكهاً:

-"جكو".. يا أخي.. ابنك هذا يعبس في الوجوه ويقطب منذ الآن ويهدد الآخرين ويتوعدهم ومتى ترعرع وشب عن الطوق فلن تستطيع إرغامه على المكوث في البيت وملازمة الدار وإن وثقته بالأمراس، فتضاحك الحاضرون. ثم التفت إلى العجوز "زين" وقال:

-آه... حقاً ما اسمه؟ أي اسم أطلقتم عليه؟ فردت العجوز:

- والله يا ولدي ما أطلقنا عليه اسماً بعد وكنا قد نذرنا، وآلينا على أنفسنا أن لا نطلق عليه إلى حين أوبة أبيه... وها قد حضر أبوه فلكم أن تطلقوا عليه من الأسماء ما تشاؤون.

ألقى "جكو" نظرات حوله في حيرة واستحياء وقال:

-أنني أفوّض أخي "شيار" لتسميته بالاسم الذي يراه مناسباً.

-حسناً.. مادمت مكلفاً بتسمية فتى عزيز فاقترح اسم "كاوا" لأنني- كنت منذ الصغر- مغرماً بهذا الاسم.

كانت "روزين" قد أعدت الطعام فأحضرته ووضعته أمامهم فاختلس "جكو" نظرة ورنا إليها وابتسم وبادلته "روزين" الابتسامة ولكي تخفى ابتسامتها عن الحاضرين غطت فمها بلفاعها.

امتد السهر حتى الهزيع الأخير من الليل... والأسئلة تتدفق على "جكو" ورفيقيه عن السجون والزنزانات وعن التعذيب واضطهاد القرويين واستلابهم وانتهاك حرماتهم وعن المجاعات والتجويع القسري، وقصف منازل الأبرياء الوادعين القريبة من المناطق الحدودية... فكان الثلاثة يتعاقبون ويتناوبون في الشرح والتفسير، موضحين ما آنبهم من الأمور بكل الدقائق والتفاصيل.

كانت العجوز "زين" تهمس لـ"روزين" وتقول:

-انك ترين هؤلاء الفتيان.. إنهم يعرفون أشياء كثيرة

وكأنهم طاعنون في السن. لهم حكمة الكبار وتجاربهم.. وكأن في هذا العالم أناساً كُلفوا بإبلاغهم عن كل ما يطرأ على العالم من أحداث.

استيقظت العجوز "زين" كدأبها في الصباح الباكر وأعدت لهم طعاماً فلما نالوا قسطهم من الأكل تقهقروا إلى أماكنهم حيث كانوا يحبسون، وتوجه "جكو" إلى العجوز "حسو" وقال:

-أبتاه.. أنني- كما تعلمون- خارج على القانون في نظر النظام الفاشي، ولهذا السبب لا يمر يوم دون قدوم "الجندرمة" إلى القرية وإيذاء القرويين والاعتداء عليهم لا يفرقون بين صغير وكبير، وما دام معي بعض الرفاق فإني راغب في اصطحاب "روزين" والطفلين إلى حيث نحن ذاهبون إليه.. هناك قد نجد ظروفاً موائمة يرتاح فيها الطفلان من عناء أولئك العتاة من "الجندرمة" وجورهم وهناك سيجدان الطمأنينة والأمان، ومتى جاؤوا إليكم وسألوكم عني أجبتم:

-لقد حضر إلينا وذهب بأفراد أسرته الى حيث لا ندري، وسوف أزوركم كل ثلاثة أشهر، فلنا مهام هنا في هذه الأنحاء ولن أدعكم وشأنكم ولن أتخلى عنكم.

اختلس العجوز "حسو" نظرة إلى العجوز "زين" و "روزين" فطأطأتا رأسيهما وكأنهما يقولان: "افعلوا ما بدا لكم".

ثم استكان الى الصمت قليلاً وأضاف:

-حسناً يا بني.. إنهم أفراد أسرتك.. زوجتك وطفلاك.. ولا نظنك تبغي لهم سوى الخير.. اذهب بهم إلى حيث تشاء وتريد وما داموا مقيمين هنا فلن يهدأ لهم بال ولن تستقر أحوالهم. ألم يبلغك الخبر؟ في العام المنصرم حاول "الجندرمة" السفلة أن يذهبوا بـ"روزين" المسكينة. فإن حاولوا ذلك مرة أخرى وذهبوا بها فماذا نحن فاعلون؟ وهل في اليد حيلة؟.

احمرت حدقتا "جكو" غضباً وألقى نظرة نارية على الأرض وسحب نفثاً عميقاً من لفافته ثم سحقها في قاع المنفضة وهيمن صمت مريع على الجميع هنيهة من الوقت. قالت العجوز "زين":

-آمل أن تمضوا معنا – هذه المرة- وقتاً طويلاً يا ولدي.

-لا.. لا يا أماه.. سنغادر متى حل المساء فإن الشقة بعيدة والرفاق ينتظرون أوبتنا.

كانت العجوز "زين" تنشج وتبكي بصوت خفيض وتقول:

-يا الهي ماذا فعلنا حتى تلمَّ بنا هذه الرزايا.

استدارت الى "روزين" وقالت:

-انهضي يا ابنتي واعدي العدة.. وتأهبي للرحيل، فهذا هو قدرنا المحتوم.

خيم الظلام على الأرض، وكانت الأمطار قد كفت عن الانهمار وهبت رياح باردة، تهدر في الجبال والوديان والغابات، تحمل معها الأوراق التي تقتلعها من الأشجار وتحمل القش والأغصان المتكسرة والحشائش المتناثرة هنا وهناك وتمضي بها الى الوديان السحيقة الغور.

كان المرء يشعر إذ تلامس هذه الرياح الباردة وجهه ويديه وكأن سوطاً من النار يصفعه، ويدرك أن السماء ستكون صافية الأديم بعد هطول تلك الأمطار الغزيرة في الليلة البارحة.

تأهب الجميع للرحيل.. وخرجت "روزين" من هذا البيت الذي أمضت فيه ستة أعوام بكل مسراتها وأتراحها، وليس معها من متاع الدنيا سوى صرة تحمل فيها ثيابها وثياب طفليها وفي الحقيقة لم يكن لديها من الأمتعة سواها.. ولئن كانت لديها أموال أو أمتعة أخرى فهل كانت تستطيع حملها في هذا الطريق الطويل الذي يعيا فيه المرء بحمل جسمه.

جرت مراسم الوداع والتوديع، ولكن العجوز "زين" لم تدعهم يسيرون فقد قبلتهم واحداً واحداً وكررت ذلك مراراً.

واحتضنتهم وطوقت أعناقهم بذراعيها وهي تقول:

-آه... لقد قوضتم أركاني.. وكيف استطيع العيش في هذا المنزل المقفر الذي خوى من "كاوا" و "نرمين" وكيف سيهدأ لي بال..؟.

رفعت يديها إلى السماء داعية متضرعة:

-اللهم انتقم من أولئك الذين كانوا سبب هذه المأساة. هل اقترفنا إثما؟.. أي ذنب ارتكبنا؟ اللهم سلط عليهم الأوبئة... ماذا فعلنا حتى تنصب على رؤوسنا الويلات وتحل الرزايا والمصائب في ساحنا؟.

كان الجميع صامتين هادئين سوى "نرمين" التي كانت تتشبث برداء العجوز "زين" وتقول لها:

-جدتي.. جدتي... لماذا تبكين؟ سنعود بعد سنة... هكذا قال أبي.

فتناولتها العجوز واحتضنتها وألصقتها بصدرها وقبلت وجنتيها وقالت:

-آه.. يا أبنتي الغالية.. ليتني أكحّل عيني بمرآك مرة أخرى ولأمت من بعد ذلك.

كانت العبرات تنهمر من مقلتيها وتنساب على خديها المنتفختين ثم تنحدر وتتساقط على الأرض.

أما العجوز "حسو" فكان يتكئ على باب الردهة صامتاً، ويرمق العجوز "زين" والضيوف بنظرات بائسة خالية من الأمل وقد حار في أمره لا يدري ماذا يقول وماذا عليه أن يفعل.

حين غادروا المنزل لم تتمالك العجوز "زين" نفسها من الخروج في أعقابهم لتهتف في "روزين" قائلة:

-يا ابنتي "روزين" احرصي على "كاوا" واهتمي به وشددي به العناية، ولئن أصابه مكروه فلن يكون لحياتك معنى آنذاك ومن الخير لك أن تلقي بنفسك من حالق الى الهاوية.

ثم أضافت في صوت خفيض: إه يا "كاوا" الحبيب... يا حمل جدته.. الأثير الى قلبي... بأبي أنت.. سيروا والله يرعاكم وينصركم. ويحميكم.

هذا هو اليوم الثالث وهم ما يزالون سائرين... بين الغابات والأدغال حيناً وطوراً في الوديان وبين شعاب الجبال الضيقة.. وتارة بالقرب من مخافر "الجندرمة" ومراكز المراقبة ومراصد الحدود... وأحيانا أخرى في أعماق الوهاد السحيقة الغور... كانوا بين حين وآخر يستجمون ويستريحون من وعثاء السفر وعناء السير الدؤوب في كهف مظلم بارد أو في بيت بعض الأصدقاء الذين يثق بهم "جكو" ويعرفهم معرفة جيدة.

كانت "روزين" دائمة القلق والاضطراب، مشوشة الذهن، مشتتة الفكر تسأل بينها وبين نفسها: "إلى أين نحن ماضون؟ وكيف تكون هذه البلاد التي نقصدها ونتوجه إليها، وهل يكون سكانها على شاكلتنا؟ ولكن أيّان لي أن يطمئن لي بال في بلاد الاغتراب دون أليف أو أنيس؟" مثل هذه الأسئلة كانت تعشش في رأسها وتزدحم حتى تصبح معضلة ولا تجد جواباً. ولكنها في نهاية المطاف كانت تهوّن الأمر وتعزّي نفسها قائلة:" وأي شأن لي بالصديقات والخليلات، يكفيني انساً وسعادة قربي من طفلي "كاوا" و "نرمين"... يكفيني كوخ صغير يأوينا وكسرة خبز نقيم بها أوْدنا... إن تكن الصحة موفورة والبال خالياً فلا حاجة بي الى مال الدنيا ومتاعها".

في تلك الأيام الثلاثة من السير الدؤوب، كان ذهن "روزين" مشغولاً بمثل هذه التأملات.

في ظهيرة اليوم الثالث وهم لائذون بركن صخرة في الجبل لينالوا قسطاً من الراحة، انقشعت الغيوم الداكنة وتكشفت عن قرص الشمس التي أرسلت أشعتها الذهبية على الكون وبثت الدف في أوصالهم فانسلت تيارات من الوسن الى عيونهم ودب الفتور في أجسادهم.

تفرق "جكو" و "شيار" و "جوان" هنا وهناك يجمعون الحطب ليحتسوا شاياً ساخناً. أما "روزين" فقد أوت الى صخرة

قريبة اتقاء الأنسام الباردة، معرضة جسدها لحرارة الشمس. ولما كان الصغيران قد نالهما التعب والإرهاق أكثر مما نال الكبار ولكي تنام "روزين" لماماً فقد دثرت ابنتها "نرمين" بمعطف زوجها "جكو" وأرخت قليلاً أربطة الرضيع "كاوا". ثم دست رأسه في صدرها وألقمته حلمة ثديها فتناول الثدي بنهم وشراهة كذئب طال جوعه ورنت الى الوجه الطفولي البريء بود وإشفاق ومسدت بيدها رأسه وهي تهمس: "آه... يا ولدي الغالي.. يا كل أملي... يا موئلي وملاذي... لقد جعلت صفحتي بيضاء ناصعة لدى الجارات وغيرهن وأنقذتني من أقاويلهن ودسائسهن.. ولولاك لكانت حياتي كلها عذاباً وآلاما.".

وتحت وطأة لمسات الأشعة الدافئة تسلل النعاس الى أجفانها فأسندت ظهرها الى الصخرة واستسلمت لسلطان النوم ونامت نوماً عميقاً وابنتها فوق ركبتيها والرضيع على صدرها.

"مدينة واسعة شاسعة... المباني شاهقة سامقة تناطح السحاب.. الشوارع مكتظة بالسابلة الغادين والرائحين مزدحمة بالآليات والسيارات ووسائط النقل وحافلات المسافرين... تتحرك في هدير وديّ وزعيق، تتزاحم كما تتزاحم جماعات النمل في بيوتها، فلو أنك ألقيت تراباً لما سقط منه شيء على الأرض لكثرة المارين. إنها تقيم في هذه المدينة العجيبة، وقد كبر "كاوا" وكبرت "نرمين" والتحق الاثنان بالمدرسة.

نهضت في الصباح الباكر، واعدت لهما الفطور... ألبستهما ثيابهما النظيفة التي أخرجتها من خزانة الملابس.

حمل الصغيران دفاترهما وكتبهما وأقلامهما وخرجا من البيت وقد تشابكت يداهما حتى بعد خروجها من الباب الخارجي، ثم لوّحا بيديهما لأمهما وهما يثبان ويقفزان.. هي أيضاً لوّحت لهما بإحدى يديها بينما هي واقفة لدى الباب تراقبهما وقالت:

-افدي ولديّ العزيزين.. افدي تلميذيّ... اذهبا بسلام. كانت يداهما ما تزالان متشابكتين وهما يجتازان الشارع للعبور الى الجهة الأخرى مسرعين، وفي منتصف الشارع داهمتهما حافلة من حافلات البلدية، وقذفت "كاوا" و "نرمين"، طرحت كلاً منهما على أحد جانبي الطريق. وسقطا جثتين هامدتين.

ولما أبصرت "روزين" ما حل بولديها صرخت مذعورة بكل قوتها: "واويلتاه... واويلتاه... ولداي.. وامصيبتاه..".

صرخت حتى جف حلقها ونشف ريقها. بح صوتها... لكن صوتها لم يبلغ مسمعاً، ولم يهب أحد لنجدتها. وأخيراً استفاقت من هذا الحلم المرعب وهي ما تزال تصرخ فتلمست ولديها. كان الاثنان نائمين.. آه.. إن ما حدث لم يكن إلا مجرد حلم ثقيل مخيف... مجرد كابوس... تنهدت بعنف.. لم يكن ما رأته حقيقة

لقد كان وهماً من الأوهام. كان قلبها يخفق ويضطرب، وفي سرها تعوذت من إبليس ومن هذا الحلم المزعج.

كان "جكو" يقف قبالتها وفي حضنه بعض الحطب وسألها:

-ماذا دهاك؟ لماذا أنت خائفة؟

-لا شيء.. لا شيء البتة.. لقد كنت احلم وحسب.

ثم وصل "شيار" و "جوان" أيضاً.

تعاون الجميع على طبخ الطعام ثم تناولوه واحتسوا شاياً ساخناً.

الوقت هو قبيل المساء... قصف الرعد، وتكاثفت الغيوم وتلبدت في ناحية الشمال... كانت قشعريرة من البرد تنتاب جسم المرء فيشعر وكأنه يعاني البرداء.

ألبست "روزين" الطفلين ثيابهما التي جففتها تحت أشعة الشمس وبدا الطفلان متغضنين ذابلين كوردتين قطفتا عن

أفنانها.

لفت نظر "روزين" وهي تدثر الطفل بلفائفه ارتعاش فكيه وتجهم قسمات وجهه وكأنه يقول:" ماذا تبغون مني؟ مرت ثلاثة أيام وانتم تجرونني في هذا الزمهرير بين الجبال والوهاد

والشعاب الوعرة... انني الآن في شهري الثالث.. أليس من حقي-على غرار أترابي- أن أتناول حليباً ساخناً حتى الشبع من ثدي أمي وأنام على صدرها وهي تناغيني في بيت دفيء.

أما "نرمين" فلم تكن تكف عن التذمر والشكوى وهي تدأب على القول:" أماه أني مقرورة.. انني مرهقة.. تعبة.. إني جائعة يا أماه... أشعر بالنعاس... أماه... إلى أيْن نحن ذاهبون؟ أين تقع المدينة التي نزمع الرحيل إليها؟.".

وفي الحقيقة، هي أيضاً لم تكن تعرف إلى أين يتجهون أو إلى أية ناحية يذهبون، فلم تتمالك نفسها وسألت زوجها "جكو":

-إلى أين نتوجه يا رجل والى أين نحن ذاهبون. فها قد مضت ثلاثة أيام ونالنا من التعب والنصب الشيء الكثير... ألم ينته السفر؟ متى سنبلغ الغاية التي نسعي إليها؟ أين هو المكان الذي نقصده؟.

تناول "جكو" يدها وذهب بها إلى ذروة الصخرة ووضع إحدى يديه على كتفها ولوّح بيده الأخرى مشيراً وقال:

-أترين تلك المدينة الرابضة في ذلك الوادي.

-أجل.. إنها كبيرة جداً... لعلها تعادل عشرة أمثال من قريتنا أليس كذلك؟.

-إنها مدينة كبيرة.. إنها "جزيرة بوتان":..." لا ريب انك تذكرين أن الجد "حسو" كان يروي لنا قصة "ممي آلان".. لقد جرت أحداثها في هذه المدينة.. في هذه المدينة ضريحا العاشقين الشهيدين "مم و زين".

-كم أتمنى أن نزورهما.

-انظري.. ما أوسع السهول في هذه المنطقة... إنها شبيهة بسهول ماردين الواسعة... الناس يعملون في هذه الأنحاء كأسراب النحل لتحصيل قوتهم وادخار زادهم لأيام الشتاء، وهل تشاهدين تلك المباني الصغيرة؟.

-أجل... إني أراها.

-إنها دور مخافر "الجندرمة"، قد أحاطت بنهر دجلة لحراسة الحدود وفي الطرف الآخر توجد مخافر عراقية.. إن نهر دجلة يمثل حدود الدول الثلاث... في هذه الليلة سنمر بتلك المخافر وسوف نجتاز النهر والحدود المصطنعة للعبور الى "الجزيرة"... السورية.

-وكيف سنعبر النهر ومعنا هذان الطفلان؟... لقد فررنا من نار "الجندرمة" فهل جئنا لنلقي بأنفسنا بين أيديهم؟

-وماذا سنفعل؟ - أننا مكرهون وليس لنا حيلة أخرى.

كان المطر ينهمر رذاذاً ولم يكن بوسع المرء أن يفتح عينيه بسبب هذا الهطول... كانت قطرات المطر الصغيرة تنساب فوق الثياب وتتغلغل الى الأجساد، فلا تترك رقعة دون ابتلال.

مرت ثلاثون دقيقة وهم يسيرون بحذاء ضفة دجلة مطرقي الرؤوس مقوسي الظهور بخطوات حثيثة.. وبعد فترة أخرى وصلوا الى سفح رابية فأسرع "جكو" و "شيار" و "جوان" الى إلقاء إثقالهم على الأرض.. أخرجوا أربع إطارات من المطاط، ونفخوا فيها الهواء وحين امتلأت هواء ربطوا كل إطار بالآخر.

كانت "روزين" تجلس عن كثب-القرفصاء قريبة منهم ولكي تحمي الصغيرين من لسعات البرد فقد دثرت "نرمين" بمعطف "جكو"، وألصقت "كاوا" بصدرها، وشرعت تنتظر إليهما نظرات مرتعبة لا تنطوي على مغزى، خالية من كل معنى. قال لها "جكو" مشجعاً:

-مهـلاً.. فمتى عبرنا هذا النهر لم تبق أمامنا أية متاعب

أخرى.. فعلى رسلك... وما عليك سوى العناية بالصغيرين والاهتمام بهما واحذري أن يبكيا فإن المخافر تحيط من كل جانب، ومتى شعروا بنا ساءت أحوالنا ولم نأمن على حياتنا.

كان نهر دجلة يفور ويغلي.. لأن الأمطار المنهمرة تذيب الثلوج المتراكمة فوق الجبال فتجرف التربة وكل ما تصادفه في

طريقها وتنصب في النهر فيزداد ماء النهر ويفيض... وتتلاطم الأمواج وترتفع مع هبوب الرياح العاتية وتصطدم بحافات النهر وترتطم بضفافه فتلحس الأوراق وتلعق القش والحشائش وتعود بها الى النهر بهدوء.

صعد الجميع الى الفلك المصنوع من الإطارات المطاطية... . كان كل من "شيار" و "جوان" قد امسكا بقطعة خشبية لتكون بمثابة مجداف وشرعا يجدفان بهما ويخوضان في المياه العكرة بكل عزم وقوة، يتعجلان بلوغ الضفة الأخرى.

كان "جكو" قد وضع "نرمين" في حضنه وتشبث بها بكامل قوته وقد جلس القرفصاء، وكانت "روزين" قد غطت "كاوا" ببطانية ولفتها حوله بإحكام وكأنها تخشى أن يتخطفه الخاطفون من يديها، لذلك كنت تراها تشد الوليد الى صدرها بكلتا يديها وهي جالسة. وقد صعد قلبها الى حنجرتها رهبة ورعباً وفزعاً.

بدا النهر من تحتهم وكأنه ثعبان هائل هائج يتحين الفرصة لينهشهم، وأضواء المخافر المحيطة بهم من الجهات الأربع بدت كعيون الضباع الخبيثة تتربص بهم.

لم تصدر من أحدهم نأمة... كان الجميع ساكنين صامتين، لا يُسمع سوى صوت المجدافين اللذين يدفع بهما "شيار" و "جوان" مياه النهر ليمخر "الفلك".

وصلوا الى اللج المتلاطم في وسط النهر.. هبت عاصفة هوجاء فازدادت الأمواج عنفاً ووحشية وارتفاعاً.. أدرك "شيار" و "جوان" أن الزوبعة عاتية وستقهرهما وتغلبهما على أمرهما فجدفا بمزيد من البأس والعنفوان... بيد أن الزوبعة اشتدت وازدادت ضراوة كلما مرّت الدقائق...

كانت أمواج النهر تتلاطم وتتصادم وكأن بينها ترةً أوْ عِداءً... تلطخت ثياب أولئك القابعين على "الطوف" المطاطي بمياه النهر الملوثة بالأوحال والطمي.. وتأرجح الطوف صاعداً هابطاً مع حركة مياه النهر التي لا تدوم على حال.. كان يعلو ويهبط ويعود أخيرا الى سيرته الأولى.

كانت "روزين" تمسك كتف "جكو" بإحدى يديها بإحكام، وباليد الأخرى تشد "كاوا" الى صدرها ومن شدة ما يختلج في صدرها من رعب حبست نفسها على الطوف نصف جالسة او نصف مستلقية تراقب الأمواج:" إنها أشبه بذئاب مسعورة ضارية منها بأي شيء آخر تهاجم الطوف من الجهات الست".

في خضم ذلك النهر الواسع العريض، المتلاطم الأمواج، كان يخيّل إليهم أن عزرائيل قادم إليهم لقبض أرواحهم.. لم تكن "روزين" تفكر في نفسها أو تبالي بحياتها:"آه لو سَلِم الأطفال وليكن من أمري ما يكون".

لكن الأمواج لم ترأف بهم.. ولم يكن لهم من مسعف أو مغيث.. وتحسب أن السعد قد تنكر لهم بل تحول إلى عدو لدود.. وفي تلك الحال من اليأس والقنوط وانقطاع الرجاء أشفقت على هذا المآل فتوجهت الى النهر وكأن للنهر أذنا يسمع بها أو قلباً يستجيب للتوسل، قالت راجية متضرعة: "ماذا تبتغي منا أيها النهر إن كنت لا تشفق علينا فارأف بنا من أجل هذين الصغيرين البريئين، وامنحْنا بعض عطفك واعف عنا.. إننا بائسون يائسون.. لا حول لنا ولا قوة... إننا لم نظلم أحدا ولم نعتد على أحد ولم نسيء الى أحد ولم نسلب أحدا ماله.. إننا عابرو سبيل... فلقد خلّفنا وراءنا أرضنا وأهلنا.. فماذا تريد منا؟ فدتك نفسي.. دعنا نمضِ في طريقنا... دعنا نذهب لطيتنا رأفة بهذين الطفلين البريئين البائسين".

وبينما كانت تجأر بالدعاء وتبتهل وتتوسل إلى النهر دهمتهم موجة عارمة قذفت "الطوف" بعيداً فكاد أن ينكفئ لكنه ما لبث أن استوى على صفحة المياه واستعاد حالته الأولى. وفي هذه المعمعة انكبت "روزين" على وجهها فوق الماء. لكن "جكو" أسرع إليها من الخلف وأمسك بردائها، واذ هما في الاضطراب سقط من بين يديها شيء وغطس في مياه النهر... حدقت في المياه... لم تر شيئاً طافياً على السطح.. وبغتةً حدثها قلبها:" تباً لك... لقد سقط وليدك في الماء فماذا تنتظرين؟". تلمست بيدها

هنا وهناك... ضغطت على الملاءة التي دثرت بها "كاوا" كانت الملاءة خفيفة...خالية.

أحست بآلام شديدة في دماغها وكأن ألف مطرقة هوت على رأسها... أصابها الدوار، وغشي على بصرها... لم تعد قادرة على التنفس... أوشكت على الانفجار... . لم تكن تريد أن تصدق بأن "كاوا" هوى إلى أحشاء الثعبان، فطفقت من جديد تتلمس بيديها ما حولها في ذلك الظلام الدامس متذرعة بأمل واهٍ بحثاً عن ولدها "كاوا"... عبثاً كان سعيها ... إن ما كانت تحاذره قد وقع وانتهى الأمر... لقد ضاع "كاوا" كانت ترغب في الصراخ والعويل بكل ما لديها من أيْدٍ وبأس:" أيها الناس أيها الثقلان... أغيثوني... النجدة أيها البشر... أيها العالم... ماذا صنعت حتى يُحكم عليّ بهذه القسوة؟ أية مصيبة حلت بي... أية طامة وقعت على أم رأسي... الموت خير لي من هذه الحال... فماذا افعل وأنا البائسة المحطمة النفس والقلب والجسد؟".

لكنها لم تستطع أن تنتحب وتبكي وتصرخ كما تشاء... المكان مطوق بمخافر الجند، فلو فعلت ذلك لأحس بوجودهم الجند وكان مصيرهم الهلاك. ضاقت بها الدنيا بما رحبت... لا تدري ماذا تفعل وماذا تقول. فخبأت وجهها بين يديها، وهي تحترق وتتلظى في صمت...

تذكرت كل أيامها... مرت بها صور حياتها كشريط سينمائي... تذكرت العجوز "زين" تذكرت كلماتها:

"روزين... يا ابنتي... اعتني بـ"كاوا". والله لئن أصابه مكروه فخير لك أن تلقي بنفسك الى هاوية، وما معنى حياتك من بعده".

تذكرت وشايات الجارات وأقاويلهن... ولكن ماذا لو عرف "جكو" ماذا حدث؟.... وأي معنى لحياة ليس فيها "كاوا".

قبل بزوغ القمر

كانت الشمس قد آذنت بالأفول، لكن أشعتها كانت لا تزال تزخرف السحب المعلقة في السماء بألوان الطيف... هبط الغسق رويداً رويداً ثم حجبت قطعة من الغيم ما بقي من صفرة الشمس. لقد كانت قد أدت وظيفتها وذهبت تنير أجزاء أخرى من العالم.

أولئك الذين كانوا يعملون في المصانع والمعامل والمرافق الأخرى تركوا أعمالهم وعادوا أدراجهم هادئين إلى بيوتهم، وكانت ربات البيوت قد اعددن طعام العشاء ينتظرن قدوم أولئك العاملين أو الكسبة في الأسرة. وكانت السباع والوحوش وجميع الطيور تلوذ بأوجرتها ووكناتها وأعشاشها، وتستكين إلى السبات والنوم... وفي مثل هذا الوقت من اليوم يأزف موعد العمل لأولئك الذين يزاولون أعمالهم في الدوام المسائي... كان الليل والنهار قد تبادلا الأدوار.

أما أولئك المناضلون ففي مثل هذا الوقت يكون نشاطهم وفيه يتحركون. كان في الثلاثين من العمر، غير أنه حين اكتفى من تناول طعام العشاء ووضع ملعقته جانباً بدا في ضوء المصباح المتوهج وكأنه في العشرين.. كان قد حلق ذقنه قبل قليل.. وشاربه الأسود الكث يغطي شفته العليا. ومقلتاه القلقتان تتحركان في محجريهما كجمرتين من نار متقدة تشعان بالثقة

والاطمئنان والاعتداد بالنفس.. ولم يكن يبدو عليه أنه يفكر في شيء سوى أنه مزمع الخروج ولا يفكر في غير ذلك وذهنه منشغل بالذهاب فهو متأهب لذلك.

توجه إلى خزانة في الجدار.. أخرج بعض الطلقات وحزام الذخيرة وشده حول خاصرته.. ثم دس يده بين الفراش وسحب من بينها سلاحه "الكلاشينكوف" وبسطه على يديه ثم شرع يمعن فيه ويتفحصه من كل أطرافه وجوانبه... كان السلاح جديداً، لامعاً.. إنه يحب سلاحه وهو مشغوف به إلى حدود الهوس والعشق... يحبه كما يحب أحد أولاده.

تنكب سلاحه، وشد رباطه، وتلفع بالمنديل المرقط ذي اللون الأبيض والأحمر. ثم تلمس موضع القنابل اليدوية في حزامه وأطمأن إلى وجودها في مكانها.. كانت القنابل الثلاث معلقة في أمكنتها.. ولم ينسَ راويته "المطرية".

سار باتجاه الباب وارتدى حذاءه الضخم وشد رباطه ثم عقده.

بهذا الحذاء يسير في الليل بين الصخور والأشواك تسع ساعات متواصلة لذلك وجب أن يكون حذاء متيناً يتحمل الاحتكاك والضغط. نهض وانتصب قائماً وقبل أن يغادر البيت ألقى نظرة على أولاده الستة وأمهم.. كانوا حول المائدة ليتناولوا

طعامهم وحين رأوا والدهم يروح ويغدو هنا وهناك وضعوا ملاعقهم جانباً وكادوا أن يغصوا بطعامهم، وشرعوا يترصدون حركاته. فيم كان يفكر هؤلاء الصغار؟ ولكن.. من يدري؟.

كانت والدتهم واقفة وبيدها معطف زوجها... لم يكن هذا المشهد غريباً لدى هؤلاء الصغار.. لقد اعتادوا عليه منذ أعوام. كان رفاقه يحضرون إلى بيتهم هذا.. وكان لوالدهم أصدقاء وخلان ورفاق كثيرون. البعض من "دياربكر" والبعض الآخر من "شيروان"، و"سيرت" و"هكاري"، و "وان" ومنهم مَنْ يحضر من استانبول والمدن النائية الأخرى. لكل منهم لونه المتمّيز وملامحه وقسماته الخاصة. كان البعض قصيراً.. بديناً.. فيهم الأسمر وفيهم النحيف الفارع الطول.. كان البعض ضخم الجثة، طويل القامة... كان بينهم الأشقر بشعر متجعد. لم تكن ظواهرهم منسجمة أو متشابهة كانوا خلِطاً وأمشاجا متنافرة من الأصدقاء والرفاق.. غير أنَّ بينهم سماتٍ مشتركة ووشائج وروابط وثيقة. إنهم جميعاً شامخون... أباة للضيم معتدّون بأنفسهم... تنم أعينهم عن الصدق والإخلاص والثقة بالنفس... كلماتهم وأحاديثهم تنطوي على معان سامية ومرام نبيلة...

في هذه الليلة كان والدهم سيلتحق مرة أخرى بهؤلاء

الرفاق لأنّ أمامهم مهمة.. ربما يعود بعد شهر أو بعد شهرين أو ثلاثة أشهر أو أكثر من ذلك.

كانت والدتهم وجلة مضطربة، فهذا السبيل لا يخلو من أخطار المهالك والمتاعب.. إنه السبيل إلى السجن أو القتل... ففي كل يوم يصاب بعض الناس بالجروح أو يقتلون. ولا سيما أن الدولة التركية قد حشدت الحدود بمزيد من الجنود والآلة العسكرية وفي هذه الأشهر الأخيرة بوجه خاص.

كانت تستسلم للأفكار السوداء والتأمل وتناجي نفسها في خوف: "ماذا لو أصاب هذا الرجل مكروه؟ وولدي البكر لم يبلغ العاشرة من العمر بعد وابنتي "آهين" الصغيرة ما زالت تحبو".

كانت ترفع يديها إلى السماء متوسلة متضرعة في خشوع:"اللهم أحفظه وقِهِ من قذائف الجندرمة المسعورين واحْمِهِ يا رب من جميع البلايا والرزايا".

مدّ "آزاد" يده إلى المعطف وتناوله من يد "نسرين" ثم توجه إلى الأطفال وقبلهم واحداً واحداً، واحتضنهم جميعاً وشدهم إلى صدره. ثم استدار إلى "نسرين" التي كانت قد أطرقت برأسها وتنظر إليه في شفقة ورجاء وكأنها تقول له:" كان لي شقيقان، قتل احدهما قبل ثلاث سنوات بين ألغام الحدود، أما الآخر فقد سقط تحت عجلات إحدى مصفحات الجندرمة وسحقته.. وهذا والدك قد أصبح عاجزاً لا يقدر على رفع معول أو حمل رفش... أرجوك الاهتمام بنفسك .. واحذر أولئك الجندرمة الغادرين". تبادلا النظرات هنيهة... وكان "آزاد" يدرك ماذا

يدور في خلد "نسرين".. فقد سبر عواطفها وجرّب مشاعرها فكلما غادرها "آزاد" استشعرت خوفاً وتوجساً، فرنا إليها "آزاد" برقة وحنان وابتسم لها وكأنه يقول لها:

-اطمئني فلن يصيبني مكروه.

فابتسمت "نسرين" بشيء من الخجل وأطرقت برأسها. فوضع يده على كتفها وقال:

-في هذه المرة لن أتأخر كثيراً، سأسرع في المجيء... سأعود بعد عيد الأضحى.. اخبري والدي أن يبيع تلك النعجة "الشصوص"[2] التي نضب حليبها، ويجعل ثمنها نفقة للأولاد في هذا العيد.

ثم ألقى نظرة أخيرة على الأطفال وأمهم وسرح الطرف في أرجاء الغرفة وقال:

-الآن.. وداعاً.. اعتني بالصغار.

خرج من الباب وضاع في ظلمة الليل. وردت "نسرين":

-رافقتك السلامة.

[2] - الشصوص: التي جف ضرعها ولم يعد يدر حليباً.

وقبل أن تنهي "نسرين" جملتها كان "آزاد" قد خطا ثلاث خطوات وغاب في أحشاء الليل الحالك.

كانت "شيرين" في ربيعها الثالث. قالت لوالدتها ناشجةً:

-أماه.. إلى أين يذهب أبي؟ إنه لا يعود إلى البيت، ولم يبت في البيت ثم لا يلبث أن يغادرنا سريعاً، ولماذا يبيت والد "جيهان" في المنزل كل مساء؟.

فاختطفتها واحتضنتها ثم قبلتها وقالت:

-آه... يا عزيزتي... لوالدك وظيفة في المدينة... ومتى انتهت أعماله عاد إلينا وأقام كل ليلة مع ابنته كما يفعل والد "سوسن".

فابتهجت "شيرين" بالغ الابتهاج بما سمعت من حديث أمها وضحكت وطوقت بيديها عنق والدتها.

-كان لزاماً عليه أن يبلغ تلك المغارة التي يأوي إليها رفاقه وينتظرونه فيها في موعد معلوم. كان يعرف المغارة معرفة جيدة... إنها تقع في مكان له أهمية، وقد سبق له أن بات فيها الليالي. سار مسرعاً على الأشواك والحجارة لا يلوي على شيء، وجرى كما يجري الماء في ساقية منحدرة. ولم يكن في الأنحاء أصوات سوى صوت أقدامه التي تطأ الأغصان

والأشواك المتيبسة بفعل لفحات الشمس فتهشم. وفي فترة وجيزة استطاع الوصول إلى مقربة من المغارة واحتمى بصخرة، وجعل يصيخ السمع، لكنه لم يسمع سوى صوت خرير المياه المتدفقة في الوادي وسوى نقيق الضفادع.

كانوا قد اتفقوا أن يطلقوا صفيراً حتى يتسنى لهم اللقاء لأن "جندرمة" العدو منبثون في كل رقعةٍ لاغتيال الثوار. لهذا كانوا على حذر شديد.

أطلق صفيراً خافتاً.. فعل ذلك ثلاث مرات... وأنصت، ثم ما لبث أن سمع صفيراً عن بعد خطوات قليلة، فتوجه إلى المغارة دون تردد أو وجل، ولما وصل إليها شاهد شخصاً ضخم الجسم يقف منتصباً جامداً أمام الباب وكأنه نصب من الصخر يعترض الباب... سار إليه وحين ونا منه عرفه رغم الظلام من هيئة... إنه "رزكار".

إنه منذ عام ونصف عام يشرف على عمليات تلك القوات التي تحضر إلى هذه المنطقة.. كما ألقى على كاهله مهمة تأمين الطعام والزاد لهذه القوات المتناثرة في الجبال. نادى:

-"رزكار".

نعم... أهذا أنت يا "آزاد"؟

-أجل.

-الم تصادف جنوداً في الطريق؟.

-لا... ولكن ماذا جرى؟

-قبل غروب الشمس كان رهط من الجند وهم قرابة ثلاثين نفراً قد توغلوا في أعماق هذا الجبل ولم يَدَعوا رقعة دون تمشيط وكدنا أن نصطدم بهم ونشتبك معهم، ولو حدث ذلك لألحقوا بنا خسائر فادحة، لأننا كنا قابعين داخل المغارة.

-ألم تشعروا بقدومهم؟

-هل تدري كيف حدث ذلك؟ كنا في الكهف نتناول الطعام وكان الرفيق "شفان" في الخارج في نوبة حراسة، وكان الجنود ينحدرون من أعلى الجبل، ولم يشعر بهم "شفان" إلا في وقت متأخر، وبغتةً رأيناه يقتحم مخبأنا ويقول: -"هبوا... لقد دهمنا الجنود وأحاطوا بنا". واذ انتهى من كلامه حملنا أسلحتنا ونهضنا.. بيد أننا لم نجد الوقت الكافي للخروج.. ولما سمعنا خبط أقدامهم على الأرض، انسحبنا إلى مؤخرة الكهف مسرعين وكَمنَ كل منا في ركن معتم وتحفزنا لإطلاق النار عند الضرورة القصوى وصممنا أن نقتل كل من يدخل الكهف مادمنا على قيد الحياة... وأن نقاتل حتى آخر رمق. ومن حسن طالعنا أنهم لم يشعروا بوجودنا ولم يشعروا بـ "شفان" حين خفَّ إلينا

يعدو، لذلك لم يعيروا بالاً إلى الكهف... فارتفع لغطهم قليلاً أمام مدخل الكهف ثم ولوا الأدبار، وهم يعلمون علم اليقين أنه اذا ما خيّم الظلام على هذه الجبال فليس في وسعهم مجاراتنا في القتال. قال "آزاد" مداعباً وهو يتضاحك:

-أجل.. أجل.. مرة أخرى قطعتم شباك الأحبولة. قال ذلك وسار قدماً إلى وسط الكهف.

كان الكهف كَديْرٍ رحيب.. قد وضعوا قناديل من الشمع فوق صخرة والتفوا بها، كانوا بحدود عشرين نفراً، انهمك كل فرد في انجاز عمل من الأعمال... البعض ينظف سلاحه ويعتني به ومن انتهى من عمله اضطجع على الأرض وشرع يدخن ويطلق نفثاً من الدخان.

كانت "بيان" تضع رضيعها فوق ركبتها وتسد له ظهره وتربت عليه وتهدهده وكأنه يبكي وهي تسعى تهدئته، ولكنه لم يكن باكياً. وكان زوجها "كاميران" مستلقياً على ظهره متوسداً ساعديه يحدق جاحظ العينين في الفراغ... إنه محكوم عليه بالسجن –غيابياً- مدة خمسة وعشرين عاماً. لهذا لم يجد مندوحة من التواري ففر مع أفراد عائلته الصغيرة. ولما التفت عين "آزاد" بـ "بيان" ووليدها تذكر زوجته "نسرين" وأطفالها الستة وتذكر ما قالت له ابنته "شيرين"

-"أبتاه... متى ستعود"؟.

غير أنه تجاهل هذه الذكريات وطردها من فكره محاولاً النسيان... ولما ألقى عليهم التحية ردوا التحية بصخب وصوت مدوٍ.

"أوصمان" و "قاسو" و"ريزان"، كانوا مضطجعين يدخنون لفافات التبغ ويتبادلون الأحاديث ويتشاورون في كيفية عبور الحدود.. رفع "أوصمان" ملوحاً وكأنه يقول له: "نحن هنا" فاتجه إلى ناحيتهم... وسعوا له مكاناً للجلوس. كان بين الأربعة وشائج وطيدة من الصداقة والود... يشدهم أواصر الثقة المتبادلة. كانت "الحركة " كلفتهم بمهمة مساعدة بعض رجالها لعبور الحدود لأنهم كانوا على معرفة حسنة بأحوال المنطقة وكانوا يؤدون هذه المهمة بهمة وصدق وتفانٍ وبقناعة كاملة.

أما "هوتو" فقد جمع حوله لفيفاً من الرفاق وبدأ يلقي على مسامعهم الطرف والدعابات، ويحدثهم عن أيامه الخوالي في السجن قال:

-"ذات يوم ألقى البوليس القبض على شخص مشتبه به وكان بريئاً، وبعد استجوابه والضغط عليه و المغالاة في تعذيبه أقر بارتكاب جرائم قتل وأنه فتك بخمسة وعشرين نفراً. إلا أنهم

كانوا يطمعون في مزيد من الاعتراف فشددوا عليه النكال وقالوا له:

- هيا اعترف.. وكم شخصاً آخر قتلت سوى هؤلاء؟

فقال الرجل المتورم الوجه المسربل بالدماء بسبب الضرب والتعذيب:

-والله لم اقتل سوى من ذكرت. فعادوا إلى التعذيب بالتيار الكهربائي بعد إيعاز من الضابط فرفع البائس يده وقال:

-على رسلكم.. هناك رجلان آخران سأعترف.. أجل.. كنت قد نسيت... لقد قتلت رئيس وزراء ايطاليا السابق: اولدومورو.. أجل.. أنا الذي قتله كما قتلت القائد العام لقوات حلف الناتو بعد أن اختطفته في روما... .

كان من دأب "هوتو" كلما وجد متسعاً من الفراغ أن يروي النكات والأحاديث الطريفة. لم يكن هذا الفتى قد بلغ الثلاثين من العمر ولكنه كان يبدو الناظر في الأربعين... كان فيه لثغة "يتحدث بطرف لسانه". وكانت عيناه النجلاوان تلمعان تحت نور القناديل مثل كرتين من الزجاج... وهذه هي المرة الرابعة التي يعبر فيها الحدود ويذهب إلى الطرف الآخر... وقد ظهرت بسالته في تلك المناوشات والمعارك الصغيرة مع حراس الحدود حين أوبته وأدرك الرفاق أن هذا الفتى الهمام لا يغضي الطرف

أمام السباع الشرسة ووحوش الفلوات وأن الخوف لا سبيل له إلى فؤاده بحال من الأحوال.

أنهى الرفاق مشورتهم وأصدروا قرارهم بالانطلاق. وقبل أن يخرجوا أراد "آزاد" أن يشرح لهم بعض الأمور المبهمة فقد تطرأ عليهم أحداث وهم في مسيرتهم تلك، ورغب في لفت نظر الرفاق إلى ذلك فاستوي قائماً ووضع أخمص "الكلاشينكوف" على الأرض وتناول "السبطانة" بكلتا يديه واستنداليها وانحنى بجسمه قليلاً إلى الأمام وقال بصوت جهوري يسمعه الجميع "أيها الرفاق" وما أن نطق بهذه الجملة حتى سكت الجميع وأنصتوا باهتمام بالغ، بعد أن تركوا جانباً الأعمال التي كانوا منكبين على انجازها لأنهم يعلمون أن "آزاد" ذو خبرة واسعة بمثل هذه الأمور وله تجْربة طويلة بهذه الحدود. لقد مضت أعوام طويلة وهو يزاول هذه الحرفة فاكتسب تجارب عميقة وخبرات عظيمة وتمرس بأحوالها. لهذا السبب، كان عليهم أن يصغوا إليه بكل جوارحهم ويحفظوا عنه ما يلقي على أسماعهم وينفذوا كل ما يطلب إليهم ويسير حسب النهج الذي سيرسمه لهم. لقد كانت كلماته بهذا الصدد من الأهمية بمكان تعادل أهمية الحياة عندهم: "إنكم تعلمون أنه لا يمضي يوم واحد دون أن يغتال الجندرمة أحد أخوتنا، وهم يزداوون سعاراً وهمجية كلما أحسوا بتحرك الثوار، والحكومة تقحم المزيد من الجنود في مناطق الحدود... لقد نصبوا مراكز جديدة للمراقبة على مسافة

متقاربة من الأرض.. وعند هبوط الليل يقبع جنديان في مخابئهم المحفورة في الأرض ولا تفصل بين المخبأ والمخبأ سوى مائة متر. والسيارات العسكرية والمصفحات لا تكف عن التجول حتى شروق الشمس... والأضواء الكشافة تحيل حلك الليل إلى نهار مشرق... لهذه الأسباب علينا أن نكون على حذر ونظل مستيقظين... وعلينا أن نسعى جاهدين لتجنب الصراع والابتعاد عن الاشتباك بهم، ومتى اشتبكنا معهم أو اصطدمنا بهم عاد ذلك علينا بالويل والثبور وعاد عليهم بفوائد جمة ومنافع جليلة... لأنهم في الوقت الراهن اكثرنا قوة وأشدنا بأساً... واتخذوا من كل ذلك ذرائع للإغارة على القرى والسطو على البيوت وتشريد الأهالي وقتل الأبرياء واحتجاز المئات منهم وإلقائهم في غياهب الزنزانات... وعلى الرغم من فاقة القرويين وبؤسهم وحرمانهم يرغمونهم على دفع المكوس والإتاوات الجائرة دون أي وجه حق وينتهكون الحرمات ويقترفون كل الموبقات. ولكن إن شبت بيننا معركة ما فعلينا أن ننسى كل شيء... لسنا راغبين في قتل خمسين نفراً من الجندرمة مقابل أن يجرح منا فرد واحد، وليس ببعيد أن نقتل عن بكرة أبينا... ولكن لا بأس.. إنهم متى استطاعوا إبادتنا لما ادخروا وسعاً... ونحن أيضاً إن استطعنا اجتثاث أرومتهم لما ترددنا لأن هذه الحرب دعوة إلى تحرير وطن مغتصب.

تنهد من الأعماق وتابع:"هكذا تكون مسيرتنا: يسير "شفان" في المقدمة ويسير الرعيل كله خلفه واحداً خلف الآخر، ومتى أمر "شفان" بالتوقف أو الجلوس جلسة القرفصاء أو التحرك زحفاً فلا بد من الامتثال لتعليماته وتطبيقها بحذافيرها... وعليهم التحدث بصوت خفيف، ومتى أراد "شفان" أن ينبه الرفاق إلى شأن من الشؤون فإنه سينقل تلك الرغبة همساً إلى الذي يتبعهُ ويفعل الآخر مثل ذلك حتى يصل الخبر إلى آخر رفيق في المؤخرة. واعلموا أنه متى فُرض علينا القتال أصبح التقهقر أو الانسحاب إلى الوراء من الأمور المستحيلة... ومتى أصيب أحد بجرح فعليه التنحي واللجوء الى الطرف الآخر... إن التراجع في مثل هذه الحال يعني القتل بكل تأكيد ولا سيما بالنسبة لأولئك الرفاق الذين يجهلون طبيعة المنطقة... وعلى الرفاق الاهتمام بالآخرين.. ومتى وقع احدنا في يد الجند مثلوا به وجعلوه أمثولة بين القرويين لإرهابهم".

وبعدما أنهى حديثه هذا تناول سلاحه بيده اليمنى ورفعه إلى كتفه وقال:"فلنسر موفقين".

عندئذ دبت الجلبة في الكهف وصار الجميع على أهبة للخروج. وضعت "بيان" طفلها على ظهر والده "كاميران" وشده شداً محكماً بحبل مجدول من النسيج. كان الطفل مستغرقاً في نوم عميق وقد مال رأسه إلى أحد جانبيه... كان الطفل

مخدراً غائباً عن الوعي ريثما يعبرون الحدود، خشية أن يبكي ويشعر بهم حراس الحدود.

خرج الجميع من الكهف متعاقبين كحلقات سلسلة طويلة. خرج "آزاد" ثم تبعه "أوصمان" ثم "قاسو" و"ريزان"، وسار "شفان في المقدمة.

انطلقوا من الجبل واتجهوا إلى ناحية الحدود.

هدأ الكون وسكتت الأصوات وحل الظلام... كانت السماء صافية الأديم في هذه الليلة الصيفية ككل ليالي الصيف، وكانت النجوم تتلألأ في السماء وتومض، غير أن ضياءها لم يكن يتجاوزها ولم يكن ذاك الإشعاع ذا نفع في طرد جحافل الظلمة عن وجه الأرض... وكّان جبل "جودي" بقامته الشامخة المديدة قد تطاول بهامته فاخترقت دنيا النجوم وغابت في أجواز الفضاء... هذا الجبل الذي يوحي إلى الرائي بالرهبة والخشوع. تُرى كم شاهد من الأحداث وكم عاين من الحروب والمعارك.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف من بعد منتصف الليل. تنطلق من القرى القريبة أصوات هي خليط من صياح الديكة ونباح الكلاب، تشق سكون الليل الساجي وتعكر صفاءه، وتصل إلى أماكن قاصية بعيدة.

مرّ من الوقت أكثر من ست ساعات وهم يتخبطون بين الحفر والأشواك دون هوادة أو هدنة.

بين حين وآخر كلما كلت "بيان" وأصابها الإرهاق سار "هوتو" إلى جانبها وساعدها على المشي إلى أن تستعيد أنفاسها. كانت "بيان" ربة بيت ولم تكن لها تجربة أو معرفة بمثل هذه المجازفات حتى في أحلامها.

وقصارى القول فقد اجتازوا خطوط أنابيب النفط وعبروا دجلة دون عناء كبير... أصبحوا على بعد مائة خطوة... سمعوا أصوات الجنود وضجيجهم. كان البعض يغني بأصوات عالية والبعض الآخر يطلق الرصاص في الفراغ، وكان آخرون يقبعون في المخابئ مثل كلاب تتربص بقنيصة، وبدا أن كل هذا الصخب والضجيج مبعثهما الخوف وأنهم يتعمدون كشف مواقعهم لأولئك الثوار حتى لا يقتربوا منهم بطريق الخطأ أو المصادفة، لأنهم يتعرضون للقتل أكثر مما يتعرض له الثوار.

التأم شمل الأربعة بين أكوام القش التي ارتفعت نصف قامة...

نظر "أوصمان" من خلال المنظار المقرب إلى المخابئ يستكشف أمرها. لعل أحداً لم يعتد على استكشاف الأشياء بواسطة المنظار آناء الليل، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك، لأن الحياة

والتجارب علمتهم أنهم متى شاهدوا بقعة أكثر قتامةً أدركوا أن خطراً من الأخطار يكمن وراءها. كانوا يستكشفون معالم الطريق ثم يتابعون السير.

رفع "أوصمان" المنظار عن عينيه وقال:

-إن لم أكن مخطئاً فإن شيئاً ما يقبع بين المخبأ و المخبأ. في المرة الماضية، حين مررنا من هنا لم تقع أبصارنا على ذلك الجسم، وربما أحدثوا مخبأً آخر هناك.

تناول كل من "آزاد" و "قاسو" المنظار وأكدا على وجود مخبأ جديد.

كان العدو قد عثر على آثار أقدام في تلك المنطقة فأنشأ مخبأ جديداً في تلك الرقعة من الأرض تداركاً لما فات وسداً لتلك الثغرة فكانت العناصر الموجودة في هذا المخبأ الجديد تهب لنجدة المراكز الأخرى متى سمعت صوت إطلاق النار. قال "آزاد":

-أيها الرفاق... اقترح أن لا نتابع السير قبل التأكد من هوية هذه النقطة الجديدة لأنها ستلحق بنا أضرارا جسيمة متى اشتبكنا مع الجنود.

رضي الثلاثة باقتراح "آزاد" وحبذوا رأيه... تأهب الجميع وجهزوا أسلحتهم لإطلاق النار، وساروا بهدوء وسكينة متجهين إلى المخبأ الجديد.

كان بقية الرفاق قد تخلفوا عن الركب على بعد خمسين خطوة واختبأوا بين أكوام القش، يلوذون بالصمت. وكانوا كلما سقطت عليهم الأضواء الكشافة المنبعثة من مصفحات العدو انبطحوا على الأرض وازدادوا بها التصاقاً إمعانا في التخفي.

كانت "بيان" دائمة التحديق في ظهر "كاميران" حيث يرقد الرضيع المخدر وتنتظر إشارة من المتقدمين... وفي غضون دقائق ومن مسافة عشرين خطوة من المخبأ الجديد انطلقت نيران البنادق ودوى صوت الرصاص وانهالت القذائف من حولهم على الأرض واتضح لهم أن تلك النقطة الجديدة كانت مخبأ جديداً. وقد أحس بهم الجنود فلم يعد التراجع ممكناً.. ولم يبق أمامهم سوى شق الطريق بين هذه النيران. فها هم يلتقون وجهاً لوجه بالعدو... لقد كشف الغطاء ولم يعد الأمر خافياً على أحد، صرخ "آزاد" قائلاً:

-أيها الرفاق اضربوا، إن أمهلناهم لما أبقوْا علينا كانوا يدركون أن الخطر كله يكمن في هذه الرشقات الأولى، فإذا نجوا منها عرفوا ماذا يجب أن يفعلوا.

بدأ الجميع يصبون حمم بنادقهم على المخبأ.. ولم يدعوا الفرصة للجنود كي يلتقطوا أنفاسهم أو يستعيدوا رباطة جأشهم حتى يعبر الرفاق الآخرون بسلام. وهكذا فعلوا هذه المرة أيضاً.

أطلق "أوصمان" نيرانه على الجهة اليمنى من المخبأ وأطلق "ريزان" الرصاص باتجاه الناحية اليسرى. أما "قاسو" و "آزاد" فقد اتخذا المخبأ الأوسط هدفاً لنيرانهما.

في السادس من شهر أيلول وفي ليلة باردة من ليالي الخريف، وفي برودة أنسام الفجر كان الرصاص المنطلق من البنادق يلعلع دون هوادة ويسمع صوته من مسافة ثلاث ساعات سيراً على الأقدام.

استيقظ القرويون في القرى المجاورة من نومهم العذب وأصغوا إلى صوت الرصاص والوسن ما يزال يرنّق في عيونهم ونفوسهم في قلق عظيم.

كان "كادار" حفيد العم "رمو" في السابعة من العمر وقد تدثر باللحاف فوق سطح المنزل، واذ سمع أزير الرصاص دس رأسه تحت اللحاف والتصق بحضن جده وقال:

-جداه... لماذا يتبادل هؤلاء إطلاق الرصاص وما سبب ذلك؟

مسد العم "رمو" رأس حفيده. واخرج علبة التبغ من تحت الوسادة وصنع "سيجارة" وسحب منها نفثاً وقال:

-آه... يا ولدي... كم من مرة يفعلون ذلك... لقد كنت في مثل سنك إبان ثورة الشيخ سعيد... كم من نساء وأطفال وأبرياء قتلوا... كم من مدننا وقرانا أحرقت ودمرت ولكن القضية لم تنتهِ بعد. من بعد ذلك جاءت ثورة "آكري" وانتفاضة "صاصون" ثم ديرسم. كان والدي عليه الرحمة يقول:

-"إن حروبنا مع المغتصبين الأتراك ليست وليدة هذه الأيام. لقد كانت على قدم وساق منذ أيام السلطان "سليم"... يضعف أوراها أحيانا ثم يتأجج من جديد... وتنتشر نيرانها في كل الأرجاء وتخمد من حين وآخر ولا يبقى في الميدان سوى رجال من "البشمركة" في الجبال، لكن المعارك ستظل مشبوبة حتى يوم الخلاص والتحرير. والدي أيضاً استشهد في ثورة الشيخ سعيد. وقد بدأ الآن الصراع بين الثوار و"الجندرمة" ولكن صبراً.. وسنرى من الذي سينتصر... إن الجندرمة عندما يقتلون في الليالي الحالكة تزاح جثثهم عن ساحة المعارك وتخفى عن الأعين وإن استشهد احد الثوار سحلت جثته خلف سيارة عسكرية تتجول بها بين القرى لتكون عبرة للآخرين".

-اتكأ العم "رمو" على الوسادة، يدخن لفافته ويحدق في السماء المرصعة بالنجوم واستمر في القول:

-"أجل يا بني... أجل... هذه هي الحرب ليست هي البداية وليست هي الحرب الأخيرة، ولئن كان لنا فسحة من العمر لشاهدنا أمورا كثيرة.

كان الرصاص ينهمر مدوياً كالبرَدَ المتساقط في أيام الربيع. ويبدو الشرر المتطاير من فوهات البنادق كبروق أيار الخاطفة للإبصار. كانت المعركة تزداد ضراوة ووحشية كلما مرت الدقائق، وكان الجنود يتقاطرون من المخافر والمراكز المجاورة إلى حيث يحتدم القتال... وصلت الآليات والمصفحات تسلط أنوارها الكشافة كذئاب ضارية شرسة متجهة إلى ساحة المعركة. بدت المعركة ضروساً، حامية الوطيس ولا يصدق المرء أنها ليست سوى مناوشات بين أربعة أشخاص وعدد من الجندرمة، ويحسب أن حرباً طاحنة تدور رحاها بين دولتين.

يحس "آزاد" بخمول في جسمه ويشعر بألم مبهم ويعلم أنه جريح ولكنه يجهل موضع الجرح، لأن جرحه كان في طوره الأول. نادى وهتف في "قاسو" قائلاً:

-استعد... فإننا عازمون على إزالة هذا المخبأ الأوسط، لمساعدة الرفاق في العبور... وبمرور الوقت تتأزم الأمور ويزداد عدد الجنود فإذا تأخرنا خمس دقائق أخرى لما سلم منا أحد.

-أنني على أتم الاستعداد.

نهض الاثنان وتوجها نحو المخبأ وأطلقا الرصاص دون انقطاع. سقطت رصاصات بين أكوام القش المحيطة بالمخبأ فانتشرت فيها النار. كان في المخبأ جنديان وإذ رأيا ذلك تركا أسلحتهما وخرجا يلوذان بالهرب، ولم يسيرا سوى عشرة أمتار حتى خرّا صريعين على الأرض. لاذ "آزاد" و "قاسو" بأكناف المخبأ.. ثم عبأا سلاحيهما.

كانت رشقات الرصاص تمر من فوق رأسيهما دون انقطاع، وبدا من غزارة الطلقات والقذائف أن عدد الجنود المشاركين في القتال لا يقل عن خمسة وعشرين نفراً...كانوا يحاربون من مسافة مائة وخمسين متراً ولا يجرؤون على الاقتراب. وكانت سيارة مصفحة قد دخلت المعركة وبدأت تطلق قذائفها فتصك الآذان بدويّها وكأنه دوي مدفع.

وهنت يداه... تبلدت ركبتاه... أحس وكأن سهماً نارياً يخترق أضلاعه، وبدأ يتنفس بصعوبةٍ بالغةٍ. سالت الدماء من الجرح على جسمه حتى أخمس قدميه... ولكنه استجمع كل قواه ليساعد الرفاق على العبور. قال هاتفاً:

-يا "قاسو". خرج صوته متحشرجاً مشوباً بالألم مشفوعاً بالتأوه والأنين على الرغم من محاولته إخفاء ذلك. وفجأة أجفل "قاسو" وقال:

-آه.. قل يا "آزاد" ماذا دهاك؟ هل أنت مصاب؟.

-لا... لا... لا بأس... ذلك غير مهم... أخبر "شفان" أن يعبر بالرفاق. ليسِره "شفان" و "هوتو" في المقدمة وليسره "ريزان" و "أوصمان" جانباً إن لم يكن قد أصابهما مكروه.. وان يكونا على حذر وليمضيا.. أما أنا وأنت فسنشاغل المصفحة ونعيق حركتها ريثما يعبر الرفاق السكك الحديدية، إلى الطرف الآخر. اقذفْ في البدء قنبلة يدوية حتى لا يقتربوا منا ولو علموا أننا نقاتل بالبنادق وحدها لاجتاحونا بالمصفحة وسحقونا تحت عجلاتها. وهذه هي فرصتنا الأخيرة. ثم ارشق المصفحة بنيران بندقيتك واطلب من بعد ذلك حضور الرفاق.

تناول "قاسو" قنبلة وسحب صمام الأمان وقذفها بكل ما لديه من قوة باتجاه المصفحة، وفي ذلك الظلام دوّى صوت القنبلة وأضاءت ما حولها برهة ثم انطفأت وبقيت شرارات متطايرة معلقة في الفضاء. وفي الحال أطفأت الآليات والمصفحة أنوارها الكشافة خشية أن يكتشف مكانها.

صرخ "قاسو" مستنجداً بـ "شفان":

-يا "شفان"... اسرع في إحضار الرفاق وتقدم،

ثم هتف في "أوصمان" و "ريزان":

- أوصمان" و "ريزان" كيف حالكما أيها الرفيقان؟ فرد "أوصمان":

-لقد لامست رصاصة خاصرتي وخدشتها قليلاً ولكنها لم تصبني بأذى يذكر. أما "ريزان" فرد قائلاً:

-أنني بخير... لا يهمني سوى سلامتكم. قال "قاسو":

-حسناً... ها هم الرفاق قادمون... سيروا في الجانبين... سيسير "شفان" و "هوتو" في المقدمة... امضوا وكونوا على حيطة وحذر أما أنا و"آزاد" فسنشاغل هؤلاء الأنذال إلى أن تعبروا، ومتى وصلتم بسلام فأطلقوا رصاصتين مضيئتين "خطافتين" كي نطمئن بالاً.

جرت هذه الأحاديث في فترة وجيزة جداً.. كانوا يتفاهمون بشق الأنفس بسبب دوي الرصاص والقنابل.

في الوقت الذي استطاع "شفان" و "هوتو" جَلْبَ بقية الأفراد من رفاقهم إلى هناك، كان "قاسو" و "آزاد" يشبون نار معركة حامية الوطيس.

قال "شفان" دون أن يتوقف متابعاً المشي:

-كيف حالكم أيها الرفاق... هل ترغبون في شيء؟ قال "قاسو":

-لا... لا... اسرعوا في العبور قبل أن ترسل المصفحات أضواءها الكشافة.

سار رتل الرفاق حثيثاً في المقدمة الواحد تل الآخر. كان "آزاد" يقاتل من جهة ومن جهة أخرى يراقب المسيرة، حتى اختفى آخر شخص في الظلام وتوارى عن عينه التي لم تنقطع عن المراقبة لحظة واحدة.

في هذه المرة احتدم القتال من جديد وازداد ضراوة ووحشية وقسوة. كان عدد المقاتلين قد بلغ ستة أشخاص. هدرت المصفحات وتصاعدت الصرخات فإذا الهدير والدوي والصرخات تختلط في نغمة واحدة رهيبة... كان الموقف يذكّر بيوم الحشر حين لا تسأل أم عن وليدها. كان "هوتو" يصرخ من بعيد ويقول:

-" هذه الليلة هي ليلتنا معكم". وفجأة علا صوت الطفل طفل "نسرين" المخدر... لم يعد التخدير ساري المفعول ولم يبق له من تأثير على الطفل فاستفاق واستعاد وعيه وشرع يبكي. قال "شفان":

-"اسرعوا أيها الرفاق فلم يبق إلا القليل".

كانت أصوات اللغب والضجيج تبتعد حيناً بعد حين.. وكانت أصوات البنادق تخف وتخفت رويداً رويداً... وأخيراً بد لهم أن الركب قد عبر ونجا.

بذل "آزاد" أقصى جهده لينهض على قدميه. لكنه عجز... أحس بجسمه مشدوداً إلى الأرض بأوتاد فلم يستطع الإتيان بأدنى حركة... وإذ حاول الحركة شعر وكأن ناراً تستعر بين جوانحه وأحشائه... تلمس خاصرته اليسرى ووضع يده على موضع الجرح فأحس بحرارة الدماء اللزجة على راحة يده... وجد الجرح غائراً عميقاً... انغمست أصابعه في الجرح المثخن. كان الرصاص الغادر قد أصاب قفصه الصدري من الجهة اليمنى ونفذ من الطرف الأيسر. تناول منديله لينزعه عن رأسه ليضمد به جرحه. ناداه "قاسو":

-"آزاد"... "آزاد"... ماذا تفعل يا أخي؟ ها هم الرفاق قد أطلقوا الرصاص المضيء... لا ريب أنهم ذهبوا بسلام.. لقد احتشدت على جوانب الخط الحديدي المصفحات والسيارات... إنها تترصدنا، فإذا اكتشف الجنود مكاننا لأتوا إلينا وأجهزوا علينا. لكنهم يحسبوننا قد مضينا مع الآخرين... قال "آزاد":

-"قاسو"... يا أخي... إن جرحي مثخن... ولا استطيع النهوض... انك تستطيع أن تساعدني في التقهقر إلى الخلف حتى لا يشعر بنا هؤلاء الدمويون المسعورون.. وليس أمامنا من مناص ولا مفر لنا... وإن يكن الرفاق قد بلغوا الجهة الأخرى بسلام فهذا مما يثلج الصدر.

أسرع إليه "قاسو" وبادر إلى تضميد جرحه بمنديله، وحمله على ظهره وتنكب بندقيته وسار على الطريق الذي جاؤوا منه وحث الخطا.

كانا قد ابتعدا عن الحدود مسافة فرسخين.

سأل "آزاد" "قاسو" للمرة الثالثة:

-"قاسو" هل رأيت بأم عينك أن الرفاق أطلقوا الرصاص المضيء؟.

-أجل يا أخي... لقد رأيت ذلك بكلتا عيني.

-آه... حسناً.

كان "قاسو" يجري بسرعة ويقول:

-يا "آزاد".. لا تبالِ وطِبْ نفساً... فمتى وصلنا إلى الكهف القريب من مدينة "جزيرة" نجونا... ومتى أحس بنا الرفاق... لم يبق ما تشكو منه وسيعالج جرحك في أيام قليلة.

فقال "آزاد" متأوهاً:

-أجل...أجل.

لم يرغب "قاسو" في البقاء صامتاً فتابع:

-"آزاد"... هل تذكر تلك الليلة ونحن في بيتكم... أنا وأنت و "أوصمان" و "ريزان"... ولكن. واأسفاه... لم يكن "آزاد" يسمع حديث "قاسو".... كانت رجلاه ويداه مسترخية ورأسه متدلياً إلى أحد الجانبين، واستغرق في نوم أبدي.

عبثاً حاول تثبيت الجثة على ظهره... ولم يشأ أن يصدق ما حدث فهتف:

-"آزاد"... "آزاد"... ألا تسمعني؟ ألا تسمع صوتي يا "آزاد"؟ آزاااااد.

ولكن ما جدوى ذلك الصراخ والعويل.

وبهدوء ركع على الأرض متهالكاً... ووضع الجثة فوق ركبتيه وضمَّ رأسه إلى صدره ثم أدار وجهه إلى وجهه وقال مخاطبه وكأنه يسمع ويصغي إليه:

-اقسم باسمك أن أسير على نهجك... ولن تسكت بنادقنا.

قال ذلك والعبرات تطفر من عينيه. ثم رفع رأسه وأجال الطرف فيما حوله... كان القمر قد ارتفع بقدر قامة الشخص وبدأ يسكب ضوءه على العالم رويداً رويداً... ولم يكن قد بقي لشروق الشمس وقت طويل.

حفيدة "زين"

كان الأطفال ينتشرون في أحياء القرية ويجوسون بين البيوت والمنازل ويقرعون الأبواب ويهتفون مذعورين: "أيها العم... أيتها العمه... أيها الخال.. هيا .. لقد حضر الجنود.. ألا هبّوا... لقد وصل الجندرمة... جاء الجنود الأتراك".

اضطربت القرية ودب فيها الفوضى وانتشر القلق والخوف بين السكان وصار الأطفال والنساء والمسنون بمثابة اسماك تفتك بها المبيدات... فطفقوا يخرجون من هذه الدار ويدخلون تلك الدار... والرعب يفتك بهم وكل منهم متوجس وعلى حذر كبير يخشى أن يناله الشر، "ترى لأجل من قد جاؤوا هذه المرة؟".

سألت امرأة جارتها:

-أختاه.. ماذا يبتغي منا هؤلاء؟ لم يمضِ شهر بعد منذ حضورهم إلى القرية واستيلائهم على الأموال والماشية والذخائر... حتى الدواجن لم تسلم من لؤمهم.. أخذوا كل ما وجدوه... بعدما أمعنوا في ضربنا وأهانتنا... يقال أن "حاجي شكري" و "صوفي علي" يلازمان الفراش منذ مجيئهم آنذاك. وهما ينفثان دماً وكأنهما مصابان بالسُلال.. قالت الجارة:

-والله لست ادري ماذا يريدون... وهم منذ كنت طفلة

وحتى الآن لا يكفون عن الحضور. كانت والدتي عليها الرحمة تقول:

-"هؤلاء الجندرمة كانوا يقتحمون القرى منذ الأزمنة الغابرة، وكانوا إذا دخلوا قرية افسدوا فيها وجمعوا أولئك الذين تدور حولهم الشبهات أو يرتابون فيّهم ومضوا بهم إلى ما وراء الجبل وأمطروهم بوابل الرصاص، وانهالوا على القرويين ضرباً وأمعنوا في تعذيبهم لإرهابهم... حتى يغيبوا عن الوعي. يقال أن زعماءنا يطالبون بإقامة دولة... وهذا هو سبب حقدهم وضغينتهم". ألا تذكرين ماذا الحقوا بنا قبل شهر حين حضروا إلى القرية وذلك "اليوزباشي" الجاحظ العينين كعيني ضفدع متوحش. كان يهاجم "جيهان" ويقول لها:

-"إن لم يحضر زوجك ويستسلم لنا ستعلمين ماذا سيحل بك" إني أخشى –في هذه المرة- أن يلحقوا العار بـ "جيهان" المسكينة.

-أجل... إني اذكر وقانا الله شرهم.

تسلقت ثلاث سيارات عسكرية هضبة مثل عقارب سوداء وأطلت على القرية، ثم توقفت وهبط منها الزبانية الجنود واتخذوا هيئة الهجوم وكأنهم في جبهة حرب.

انتصب "اليوزباشي" على قائمتيه وفي يده هراوة غليظة

ينقر بها كفه ويرسل نظراته إلى أطراف القرية علّه يشاهد أحد القرويين يغادر القرية فيمنعه. لوّح بيده للجنود راسماً شكل دائرة في الفراغ مشيراً إليهم بتطويق القرية وضرب حصارٍ وقال:

-"طوقوا القرية، وخذوا الرجال والنساء وكل شخص بلغ العاشرة إلى باحة المدرسة... هيا أسرعوا".

كان الصوت المنطلق من حنجرته مدويّاً ومرعباً. وبعد فترة وجيزة اقتحم الجنود القرية وجمعوهم من الأحياء وساقوهم إلى ساحة المدرسة كما تساق قطعان الماشية.

نسي الجميع همومهم وشواغلهم وبدأوا يفكرون فيما سيحل بهم... وأي عقاب ينتظرهم. هؤلاء الرجال المحتجزون الآن لم يكونوا يهابون الموت يقفون الآن أمام زمرة من الجنود الجبناء صاغرين لا حول لهم ولا قوة... لكنهم يدركون أنه الفلك الدوّار.

توجه "اليوزباشي" إلى حشد المواطنين، ولوح بهراوته، وقد أزبد ما حول فمه وأرغى وصرخ كصراخ ضبع:

-أنكم جميعاً وحوش... الحمير أفضل منكم... حين يضرب المرء حماراً يدرك أنه يُضرب حثاً على الإسراع. لكنكم لا تفقهون شيئاً، ولا تعودون إلى رشدكم.

رفع سرواله الذي كان ينزلق عن بطنه الكبير إلى مكانه وأردف:

-لقد صعد الناس إلى القمر، وأنتم ما تزالون تعيشون كالدواب... أليس لنا عمل سوى أن ننشغل بكم بين يوم وآخر؟ ألم أقل لكم في المرة السابقة أن تحضروا بقية الأسلحة، وتسلموا إلينا أولئك الخارجين على القانون فمن منكم امتثل للأمر وأطاع؟ إن الضرب لن يجعل منكم بشراً ولن يهديكم إلى سواء السبيل. ولا ينفع فيكم سوى القتل... إنكم كالوباء وعبء وبيل على كاهلنا.

كان يتكلم وتهتز كل جارحةٍ من جوارحه وترتجف شفتاه... كانت عيناه كعيني ثعبان جريح تدوران من اليمين إلى اليسار مثلما تدور كرتان زجاجيتان ولا تستقران على حال... والناظر إلى عينيه كان يتوسم ما في ذهنه من غدر وخديعة وإثم.

ما من أحد كان يتكلم أو يرغب في التكلم... الجميع مطرقون برؤوسهم يختلسون إليه نظرات الشك والخوف. دس يده في جيبه وأخرج منها ورقة وشرع يقرأ الأسماء المدونة عليها.

كان الجنود يختطفون أولئك الذين تتلى أسماؤهم. فمنهم من

يضرب ضرباً مبرّحاً حتى يغيب عن الوعي ثم يُجر إلى مبنى المدرسة، ومنهم من يطرح في السيارات العسكرية ويُذهب به إلى خارج القرية. تحولت المدرسة إلى معتقل للقرويين وبدا كمخيم للأسرى في أثناء الحروب.

اختلط صوت بكاء الأطفال وصراخ النسوة وسباب الجنود وهم يضربون كل من يقع تحت أيديهم وارتفع النحيب يمزق نياط القلوب، وليس لهم من نصير أو معين. فكانوا يبكون يأساً وقنوطاً.

حين التفت عيناه بـ "جيهان" ابتسم ابتسامة خفية مبتسرة وكأنه يعرفها من ذي قبل ثم دنا منها وأمسك بتلابيبها ولم يدع لها فرصة للمقاومة أو الرفض وجرها إلى داخل المدرسة.

انزوت "جيهان" في أحد الأركان تنشج بمرارة، وانطوت على نفسها وانكمشت.

وضع "اليوزباشي" كلتا يديه في جيبي سرواله ووقف منتصباً أمام "جيهان" وصرخ:

-لا... هذا لا يكون. لماذا لا تأتين بزوجك وتسلمينه إلينا؟

-.....

-إني أسالك... هيا انطقي.

قالت باكية:

-وهل استطيع تسليمه إليكم وهو رجل وأنا امرأة؟ وهو إضافة إلى هذا وذاك لم يأت إلى البيت منذ أربعة أشهر.

ركلها "اليوزباشي" في فخذها وقال:

-أتزعمين أنه لم يأت إلى البيت.... أليس كذلك؟ يطيب لك أن ينام بين أحضانك، ولكنك بعد ذلك لا تعلمين شيئاً؟.

وقعت كلمات "اليوزباشي" على "جيهان" كالصاعقة وأحست بخجل تمنت أن تنشق الأرض وتغوص فيها. في مجمل حياتها لم تسمع من أحد مثل هذه الكلمات البذيئة. فعادت إلى الانكماش والانطواء والاحتماء بالزاوية التي تقف فيها.

لم يدعها "اليوزباشي" وشأنها. فقد كان عازماً على اغتصابها وامتهانها وهتك عرضها... تودد إليها بشتى الوسائل... ذم زوجها ووصفه بالقاتل الشرير والخارج على القانون وأنه عدو شعبه ووطنه... ثم أضفى عليها نعوت الجمال والفتنه وأنها امرأة يافعة حسناء وهي غير مُكرهة على إفساد حياتها مع ذلك الرجل الآثم. وليس ببعيد أن يلقي عليه القبض أو يُقتل في يوم من الأيام، وسوّل لها أن تخرج ذاك المجرم عن حياتها وتطرحها من حسابها، وتتخلص منه كي تتفرغ لسعادتها.

بدت "جيهان" وكأنها قد ألجمت فلم تنبس بنت شفة ولزمت السكوت.

إلا أن صمتها هذا أثار حفيظة الضابط وهيّج أعصابه وأخرجه عن طوره، فتناول جديلتيها، وللمرة الأولى نظرت "جيهان" إلى وجهه... لم يكن في هيئة إنسانية. كان ضخم الهامة، جاحظ العينين، تضيع مقلتاه تحت شعر أهدابه الكث.. أما الأنف فكان كمنخر حمار لاهث والأسنان صفراء كبيرة ولعابه يسيل من خلالها.

حاولت تخليص جديلتيها من بين براثنه... لكن "اليوزباشي" فوّت عليها الفرصة وبكلتا يديه جرها وضمها إلى صدره.

لم تكن تبكي... كانت تقاوم مقاومة لبوة جريحة... وبيديها الاثنتين دفعته إلى الوراء فتقهقر وارتطم بالجدار، إلا أنه في هذه المرة جن جنونه وتحول إلى كائن متوحش وقد احمرت حدقتاه واصطكت أسنانه وارتعشت شفتاه فقال لاهثاً مكتوم الأنفاس:

-وهل تحسبين أن لك خلاصاً... أيتها الغبية الحمقاء لن تفري مني وسوف ترين.

قال ذلك ومد يده إلى حزام سرواله وحل رباطه، ثم رفع يديه وتوجه إليها وكأن المرأة الماثلة أمامه طائر من طيور الحجل يحاول اقتناصه.

أوشكت "جيهان" –اذ رأت ذلك- على الاختناق وكأن عزرائيل يضغط بيديه على جيدها. لم تكن تصدق عينيها و "جيهان" التي عاشت سنوات طويلة وزوجها غائب عن الدار، لم يسيء أحد بها الظن ولم تكن في يوم من الأيام موضع تهمةٍ أو شبهة... كانت دائماً مثالاً للشرف والطهر... وها هو خنزير قذر يحاول علناً أن يذلها ويسلب كرامتها عنوة "هنا لا يفلح سوى الموت".

كان عليها أن تبحث عن سبيل للخلاص سواء بالحياة أو الموت ولكن كيف؟

فكرت. قفز إلى ذهنها ما ارتاحت إليه... هذه هي الخطة... أجل هذا ممكن... تنهدت تنهداً عميقاً.... استجمعت عزيمتها وتشبثت بالجدار، ولما تقدم منها "اليوزباشي" ووثبت –فجأة- من مكانها ورفعت قدمها وهوت بها بكل ضراوة بين فخذيه. فزعق "اليوزباشي" وانحنى إلى الأمام من شدة الألم وصرخ... عندئذ اقتحمت "جيهان" الباب وفرت إلى الخارج فحاول الجندي المحاذي للباب الإمساك بها فلم يفلح وبقي منديل المرأة في يده. واستمرت في الهرب جادة في الفرار كأرنب تفر من

كلاب الصيد تنشد خلاصها... كان شعرها ورداؤها يخفقان في الهواء... تمعن في الركض لا تلوى على شيء ولا تلتفت إلى الوراء... تقفز من صخرة إلى صخرة تثب هنا وهناك ولكن إلى أين؟ إنها لا تدري إلى أين؟

أمعن "اليوزباشي" وكذا الجنود في مطاردتها وقد تنكبوا بنادقهم ويصرخون:

- لا تهربي...قفي... إن سرت خطوة أخرى قتلناك.

- لكنها جدّت في الهرب وكأنها لا تسمعهم... سارت دون مبالاة بوعيدهم، وعلى حين غرة أَلْفَتْ نفسها تتسنم ذروة الهضبة العالية المطلة على واد سحيق. تذكرت جبل "سيباني خلاتي" وتذكرت "سيامند وخجي".

وقفت على شفا الهاوية استدارت إلى الجنود حائرة كصخرة... وقفت ذاهلة... الآن لم يعد أمامها مفر... الجنود واقفون لها بالمرصاد والهاوية من تحت قدميها فأين المفر؟ "جيهان" تلك المرأة الغانية، الفاتنة، المعروفة بحسنها وجمالها وجاذبيتها، خرجت اليوم عن طورها النسائي بمحض إرادتها ومطلق مشيئتها... بدت بقدميها الحافيتين، وشعرها الأشعث الذي تناثر بفعل الريح ونظراتها المتقدة كامرأة كاملة الجنون. أشارت بأناملها إلى الضابط وقالت:

-أيها الوغد... أيها الرعديد السافل... أتحسب أنت وجنودك أنفسكم رجالاً؟ إن كنتم رجالاً حقاً فاذهبوا إلى زوجي ورفاقه والقوا عليهم القبض أيها الجبان... لكنكم سفلة جبناء تأتون للانتقام من النسوة والأطفال وتنتهكون الأعراض... ذلك لن يدوم لكم.

لم يعر "اليوزباشي" حديثها بالاً... كان فكره منشغلاً باغتصابها... مرة أخرى ابتسم لها وتقدم منها مكشراً عن أسنانه جاحظ العينين. فلم تتردد "جيهان" فرفعت ذراعيها كما يفرد الطائر جناحيه للتحليق وألقت بنفسها من ذلك الحالق وصرخت صراخاً موجعاً أليما فتردد صدى صوتها بين الأدغال والأشجار كصياح طائر الكركي العائد من مصايفه بعد رحلة طويلة. صار الصدى ثلاثة أصوات ثم أربعة.. ثم تلاشى.

الفهرس

-إنها ليست بمقدمة!!.....5
-المقدمة.....7

-الشهيد.....9
-تباً لكِ يا دجلة.....27
-قبل بزوغ القمر.....53
-حفيدة "زين".....83

بعض أعمال دلاور زنكي : ترجمة – تأليف – إعداد :

1-ديوان شعر (بيداري= Pêdarî)، صدرعام 1985.

2-مم و زين–أحمد خاني-بالأحرف اللاتينية-1985.

بالاشتراك مع الشاعر تيريز. غير مطبوع.

3-قواعد اللغة الكردية (اللهجة الكرمانجية)، جلادت بدرخان-1990.

4-حول المسألة الكوردية -جلادت بدرخان-.أربيل-كردستان. 1990.

5-من عشق القناديل القديمة-عبدالرحمن مزوري-1991.

6-عذبة لي ومرة لناس-عبدالرحمن مزوري-1991.

7-شرفناميا منظوم-جكرخوين-1997-بيروت.

8-مذكرات جلادت بدرخان-1997-بيروت.

9-أنا والنار-الشاعر هزرفان-1997-بيروت.

10-البدرخانيون في جزيرة بوتان-ماليسانز-1998-بيروت.

11-قبل بزوغ القمر-2001-أربيل،كردستان.ترجمة:توفيق الحسيني.

12-الكاتب الكردي قدري جان-2001-أربيل-كردستان.باللغة العربية.

13-مذكرات أوصمان صبري-2001. باللغة العربية-بيروت.

14-الكاتب قدري جان-باللغة الكردية-طبع في اسطنبول 2004.

15-مذكرات أوصمان صبري-2005. باللغة الكردية-بيروت.

16-معارك صاصون-أوصمان صبري-2005-بيروت.

17- التاريخ الفولكلوري لامارة بوتان-ملا خلف بافي-2005.

18-الكاتب والشاعر قدري جان-باللغة الكردية-2005-بيروت.

19-معارك صاصون-أوصمان صبري-اسطنبول2005.

20-رحيل الشاعر تيريز-2005-المانيا.

21-قصة المولد (Mewlûda pêxember)، تيريز -2006-بيروت.

22-ديوان شعر(وثن للعشق)،دمشق.ترجمة:الشيخ توفيق الحسيني.

23-طرائف كردية-2-باللغة الكردية-تيريز-2009.موقع تيريز.

24-أطياف الماضي -2009. بيروت-لبنان.

25-مختارات (لقاءات وحوارات)، جزء(1)-2009. بيروت- لبنان.

26-مختارات (لقاءات وحوارات)، جزء(2)-2009. بيروت- لبنان.

الأعمال التي ساعد الأميرة روشن بدرخان بانجازها وقام بطبعها ونشرها:

1-مذكراتي-صالح بدرخان-دمشق-1991.

2-الأمير بدرخان-لطفي-بيروت-1992.

3-رسالة الى حضرة الغازي مصطفى كمال باشا-جلادت بدرخان.

4-مذكرات امرأة- الجزء الثاني-دمشق. دار علاء للنشر.

-له أعمال باللغة الكردية والعربية كثيرة لم تنشر بعد.